15-سورة الحجر -مكية-بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى معظما لكتابه مادحا له(الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ)الدالة على أحسن المعانى و أفضل المطالب

(وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ)للحقائق بأحسن لفظ و أوضحه و أدله على المقصود و هذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه

و التسليم لحكمه و تلقيه بالقبول و الفرح و السرور 1

موقف المشركين من القرآن و حفظ الله له 1-9

(رُّبَمَا يَوَدُّ)سيتمنى(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)حين يرون خروج عصاة المؤمنين من النار

أن(لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ)موحدين ليخرجوا كما خرجوا.

*فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها و الكفر بها فإنه من المكذبين الضالين الذين سيأتى عليهم وقت

يتمنون أنهم:-مسلمون أى: منقادون لأحكامه

و ذلك حين ينكشف الغطاء و تظهر أوائل الآخرة و مقدمات الموت فإنهم فى أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون و قد فات وقت الإمكان و لكنهم في هذه الدنيا مغترون.

*هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ:-

{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام: 27] 2

فـــــــ(ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ)بلذاتهم

*تَهْدِيدٌ لَهُمْ شَدِيدٌ وَ وَعِيدٌ أَكِيدٌ كَقَوْلِهِ{قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [إبراهيم: 30]

(وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ)يؤملون البقاء فى الدنيا فيلهيهم عن الآخرة

(فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ)

أن ما هم عليه باطل و أن أعمالهم ذهبت خسرانا عليهم و لا يغتروا بإمهال الله تعالى فإن هذه سنته فى الأمم 3

(وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ)كانت مستحقة للعذاب

(إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ)(وقت مقدر و مدة معروفة ليس المراد كتاب يقرأ)مقدر لإهلاكها 4

(مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ)و إلا فالذنوب لا بد من وقوع أثرها و إن تأخر 5

و قال المكذبون لمحمد ﷺاستهزاء و سخرية:-(وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ)على زعمك

(إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ)إذ تظن أنا سنتبعك و نترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك ٦

(لَّوۡ)هلا(مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ)يشهدون لك بصحة ما جئت به

*كما قال فرعون:{فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ} [الزُّخْرُفِ: 53]

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان]

(إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ)فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق و هذا من أعظم الظلم و الجهل.

أما الظلم:-

فظاهر فإن هذا تجرؤ على الله و تعنت بتعيين الآيات التى لم يخترها و حصل المقصود و البرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به

و أما الجهل:- فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم ٧

(مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ)بالعذاب

*فليس فى إنزال الملائكة خير لهم بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه و ينقد له

(وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا)أى: حين تنزل الملائكة إن لم يؤمنوا و لن يؤمنوا بـــ(مُّنظَرِينَ)بمهملين

فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلا لأنفسهم بالهلاك و الدمار فإن الإيمان ليس في أيديهم و إنما هو بيد الله

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)و يكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين هذا القرآن العظيم ٨

و لهذا قال هنا:(إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ)

أى:-القرآن الذى فيه ذكرى لكل شيء من المسائل و الدلائل الواضحة و فيه يتذكر من أراد التذكر

(وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ)أى: فى حال إنزاله و بعد إنزاله

1-ففى حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم

2–و بعد إنزاله أودعه الله فى قلب رسوله و استودعه فيها ثم فى قلوب أمته

3–و حفظ الله ألفاظه من التغيير فيها و الزيادة و النقص و معانيه من التبديل

فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا و قيض الله له من يبين الحق المبين و هذا من أعظم آيات الله و نعمه على عباده المؤمنين

4–و من حفظه:–1–أن الله يحفظ أهله من أعدائهم 2–و لا يسلط عليهم عدوا يجتاحهم﴿٩﴾

يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون:–لم يزل هذا دأب الأمم الخالية و القرون الماضية:

تكذيب الأمم لرسلهم 10-15

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ)فرق و جماعات(ٱلْأَوَّلِينَ) رسلا﴿١٠﴾

(وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ)يدعوهم إلى الحق و الهدى(إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)﴿١١﴾

(كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ)ندخل التكذيب (الشرك)

(فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ)الذين وصفهم لظلم و البهت عاقبناهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر و التكذيب تشابهت معاملتهم لأنبيائهم و رسلهم بالاستهزاء و السخرية و عدم الإيمان ﴿١٢﴾

و لهذا قال:–(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ)عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله﴿١٣﴾

أي: و لو جاءتهم كل آية عظيمة لم يؤمنوا و كابروا

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ)فصاروا يعرجون فيه و يشاهدونه عيانا بأنفسهم ﴿١٤﴾

لقالوا من ظلمهم و عنادهم منكرين لهذه الآية:–

(إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا)أصابها سكر و غشاوة حتى رأينا ما لم نر

*قَالَ مُجَاهِدٌ وَ ابْنُ كَثِيرٍ وَ الضَّحَّاكُ: سُدَّتْ أَبْصَارُنَا.

وَ قَالَ قَتَادَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أُخِذَتْ أَبْصَارُنَا.

وَ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: شُبه عَلَيْنَا وَ إِنَّمَا سُحِرْنَا.

وَ قَالَ الْكَلْبِيُّ: عَميت أَبْصَارُنَا.

وَ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: {سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}السَّكْرَانُ الَّذِى لَا يعقل.

(بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)

ليس هذا بحقيقة بل هذا سحر و قوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار فإنهم لا مطمع فيهم و لا رجاء ﴿١٥﴾

الاعجاز العلمى:-

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ* لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) [الحجر: 14] الرابط

إن حلم الإنسان فى الخروج خارج الأرض لم يبدأ بالتحقق إلا فى نهاية القرن العشرين عندما بدأت رحلة البحث العلمى وبدأ آلاف العلماء فى مشارق الأرض ومغاربها بكتابة أبحاثهم وإجراء تجاربهم حول آلية الخروج من الأرض وما هى الخطوات التى يجب سلوكها لتحقيق ذلك.

و لو سألنا العلماء المختصين بإطلاق المراكب الفضائية و تصميمها عن أهم شيء يصادفهم حتى تكون الرحلة ناجحة فسيجيبون بأمرين:

أولاهما:-

أن خروج المركبة الفضائية من نطاق جاذبية الأرض يجب أن يتم من أبواب أو منافذ محددة للغلاف الجوى

و الأمر الثانى:-

هو أن حركة المركبة فى الفضاء يجب أن تكون حركة منحنية تعرجيِّة و ليست مستقيمة.

و لكن لماذا هذين الاعتبارين؟

إن الغلاف الجوى مُحَاط بحقول جاذبية و مغنطيسية و إذا لم يتم إطلاق المركبة من نقطة محددة فسوف تنحرف عن مسارها بفعل هذه الحقول وتفشل الرحلة.

لذلك يقوم العلماء بدراسة النقاط المحددة للغلاف الجوى والتى يمكن أن تنطلق منها المركبة الفضائية.

ولكن ما هو شكل الطريق الذى تسلكه هذه المركبة؟

بالطبع هو طريق متعرج و السبب فى ذلك لتحاشى حقول الجاذبية التى تمارسها الشمس والقمر وبقية كواكب المجموعة.

فحركة المركبة الفضائية في الفضاء حساسة جداً لدرجة أن العلماء قد يضطرون لتغيير مسار المركبة وإطالة طريقها ملايين الكيلومترات تحاشياً لحقل جاذبية ما أو للاستفادة من حقل آخر في تحريك المركبة.

ثم إن منافذ الغلاف الجوى ليست دائماً مفتوحة بل تتغير مع حركة دوران الأرض حول نفسها و حول الشمس و كأنها بوابات تُفتح و تُغلق.

و من الأشياء العجيبة التى حدثنا عنها القرآن فى آية واحدة هذين الأمرين:-

ـ أبواب الغلاف الجوى (أبواب السماء).

ـ الحركة التعرجية فى الفضاء.

*لقد قام العلماء باكتشاف أسرار الخروج خارج نطاق جاذبية الأرض و وجدوا أن الأرض محاطة بالمجالات الكهرطيسية و مجالات الجاذبية و هذه المجالات يمكن أن تحرف المركبة عن مسارها لذلك لابد أن يخرجوا من أماكن محددة أو "بوابات" محددة فى الغلاف الجوى ليكون إطلاق الرحلة ناجحاً.

يقول عز وجل مخاطباً أولئك المشككين بصدق القرآن و صدق من أُنزل عليه القرآن:-

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ* لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 14]

و هنا نلاحظ أن الآية تحدثت عن فتح باب من أبواب السماء

و تحدثت عن حركة من يصعد من هذا الباب و هى حركة تعرجية (يعرجون).

و هنا يجب أن نقف عند هاتين المعجزتين فى آية واحدة:

لو كان هذا القرآن من عند محمد ﷺكيف استطاع معرفة أن للسماء أبواباً تُفتح و تغلق

و أن الحركة فى السماء هى حركة متعرجة؟ إذن الذى علم محمداًﷺهو الله تعالى.

و لكن هؤلاء الكفار الجاحدين برسالة الله و آياته ماذا سيقولون لو أن هذا الأمر تحقق بخروجهم إلى السماء؟

إن الشىء الذى أخبرنا به رواد الفضاء الذين صعدوا إلى القمر أن أول ما يصادفهم عند تجاوزهم الغلاف الجوي هو الظلام الشديد الذي يظن معه المرء أن بصره قد توقف!

حتى إن الأطباء المشرفين على سلامة هؤلاء الروّاد وجدوا بأن الإنسان عندما يتحرر من الجاذبية الأرضية يتعطل العصب البصرى لديه بشكل مؤقت فلا يعود يرى شيئاً و كأن بصره قد أغلق.

هذا يحدث بسبب انعدام الجاذبية و الذى يؤدى إلى خلل فى الدورة الدموية و التفاعلات الحيوية في جسم الإنسان.

و سبحان الله العليم الحكيم!يأتى البيان القرآنى فى الآية التالية ليخبرنا بتصوير فائق الدقة عن هذا الحدث المفاجئ لمن خرج من نطاق جاذبية الأرض يقول تعالى:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ* لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)[الحجر:15]

و تأمل معنى هذا النص الكريم الذي تضمن ثلاث معجزات علمية نعيد كتابتها:

1- ولو فتحنا عليهم باباً من السماء: حديث عن منافذ للغلاف الجوى.

2- فظلّوا فيه يعرجون: حديث عن الحركة المتعرجة.

3- لقالوا إنما سكّرت أبصارنا: حديث عن الظلام خارج الغلاف الجوى.

بالإضافة إلى أن هذا النص القرآنى هو نبوءة بعصر الفضاء الذي نعيشه اليوم.

فقد حدَّد الآلية الهندسية لخروج الإنسان خارج نطاق جاذبية الأرض و ذلك قبل أن يكتشفها مهندسو الفضاء بألف وأربع مئة سنة! أليست هذه معجزة تستدعى النظر و التدبر؟

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:-

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

مظاهر قدرة الله 16-25

يقول تعالى – مبينا كمال اقتداره و رحمته بخلقه– :

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا)أي: نجوما كالأبراج و الأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر و البحر

(وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهى و الهيئة العجيبة

و هذا مما يدعو الناظرين إلى:–

1–التأمل فيها 2–و النظر فى معانيها 3–و الاستدلال بها على باريها.

(وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)إذا استرق السمع أتبعته الشهب الثواقب فبقيت السماء

ظاهرها:–مجملا بالنجوم النيرات و باطنها :–محروسا ممنوعا من الآفات.

(إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ)اختلس(السَّمْعَ)فى بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية و اختلاس

(فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ)كوكب مضىء(مُبِينٌ)بين منير يحرقه أو يقتله أو يخبله.

فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فينقطع خبر السماء عن الأرض

و ربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب فيضمُّها و يكذب معها مائة كذبة و يستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

*البخارى4701–عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا(مصدر من خضع أي طاعة وانقيادا)لِقَوْلِهِ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ(لها صوت كصوت السلسلة على الحجر الأملس)–

قَالَ عَلِيٌّ(بن عبد الله شيخ البخاري):-وَ قَالَ غَيْرُهُ(غير سفيان الذى روى عنه على):-صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ(ينفذ الله إلى الملائكة الأمر الذى قضاه وهذه الجملة زيادة غير سفيان)-فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ(زال عنها الخوف والفزع)قَالُوا(أي سأل عامة الملائكة خاصتهم):-
مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا(أى الخاصة كجبريل وميكائيل عليهما السلام) لِلَّذِى قَالَ(لأجل ما قضاه الله تعالى وقاله أو قالوا للذى سأل):-
الحَقَّ وَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ(مردة الشياطين)وَ مُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ -
وَ وَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ وَ فَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ اليُمْنَى نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ -
فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِىَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ
وَ رُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِىَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ إِلَى الَّذِى هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ -
وَ رُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّى تَنْتَهِىَ إِلَى الأَرْضِ-فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ(المنجم)فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ
فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِى سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ "

(وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا)و سعناها سعة يتمكن الآدميون و الحيوانات كلها على الامتداد بأرجائها و التناول من أرزاقها و السكون فى نواحيها.

(وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ)جبالا عظاما تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد و تثبتها أن تزول

(وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ)معلوم و منهم من يقول مقدر بقدر

أى: نافع متقوم يضطر إليه العباد و البلاد ما بين نخيل و أعناب و أصناف الأشجار و أنواع النبات.

(وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ)من الحرث و من الماشية و من أنواع المكاسب و الحرف.

(وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ)

ليس عليكم رزقها بل خولكم الله إياها و تكفل بأرزاقها كالعبيد و الإماء و الأنعام لنفعكم و مصالحكم

(وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ)

أى:جميع الأرزاق و أصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله فخزائنها بيده يعطى من يشاء و يمنع من يشاء بحسب حكمته و رحمته الواسعة

(وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ)أى:المقدر من كل شيء من مطر و غيره

(إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ)فلا يزيد على ما قدره الله و لا ينقص منه﴿٢١﴾

(وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ)و سخرنا الرياح رياح الرحمة تلقح السحاب كما يلقح الذكر الأنثى

(فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ)

فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله فيسقيه الله العباد و مواشيهم و أرضهم و يبقى فى الأرض مدخرا لحاجاتهم و ضروراتهم ما هو مقتضى قدرته و رحمته

*أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ عَذْبًا يُمكنكم أَنْ تَشْرَبُوا مِنْهُ وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا.كَمَا يُنَبِّهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى
{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ68أَأَنْتُمْ أَنزلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزلُونَ69 لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ} [الْوَاقِعَة]

وَ فِي قَوْلِهِ:{هُوَ الَّذِى أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} [النَّمْلِ: 10]

(وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ)أى: لا قدرة لكم على خزنه و ادخاره

و لكن الله يخزنه لكم و يسلكه ينابيع فى الأرض رحمة بكم و إحسانا إليكم.

*وَ لَوْ شَاءَ تعَالَى لَأَغَارَهُ وَ ذَهَبَ بِهِ وَ لَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْزَلَهُ وَ جَعْلِهِ عَذْبًا وَ حَفِظَهُ فِي الْعُيُونِ وَ الْآبَارِ وَ الْأَنْهَارِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ. لِيَبْقَى لَهُمْ فِي طُولِ السَّنَةِ يَشْرَبُونَ وَ يَسْقُونَ أَنْعَامَهُمْ وَ زُرُوعَهُمْ وَ ثِمَارَهُمْ﴿٢٢﴾

(وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ)

أي:هو وحده لا شريك له الذى يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا و يميتهم لآجالهم التى قدرها

(وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ)الأرض ومَن عليها.

كقوله{إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}[مريم: 40]و ليس ذلك بعزيز و لا ممتنع على الله﴿٢٣﴾

(وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ)كُلُّ مَنْ هَلَكَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام

(مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ)مَنْ هُوَ حَيٌّ وَ مَنْ سَيَأْتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق و المستأخرين منهم و يعلم ما تنقص الأرض منهم و ما تفرق من أجزائهم﴿٢٤﴾

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡ)و هو الذى قدرته لا يعجزها معجز فيعيد عباده خلقا جديدا و يحشرهم إليه.

(إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ)يضع الأشياء مواضعها و ينزلها منازلها و يجازى كل عامل بعمله إن خيرا فخير و إن شرا فشر﴿٢٥﴾

*يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلامو ما جرى من عدوه إبليس

و فى ضمن ذلك التحذير لنا من شره و فتنته فقال تعالى:-

قصة الخلق و عصيان ابليس و مصيره 26-44

(وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ)أى آدم عليه السلام

(مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ)أى: من طين قد يبس بعد ما خمر حتى صار له صلصلة و صوت كصوت الفخار

و الحمأ المسنون:-الطين المتغير لونه و ريحه من طول مكثه﴿٢٦﴾

(وَٱلۡجَآنَّ)و هو: أبو الجن أى: إبليس

(خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ)خلق آدم

(مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ)أى: من النار الشديدة الحرارة

*وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ14وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} [الرَّحْمَنِ]﴿٢٧﴾

فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة:-

(وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا) جسدا تاما

(مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ)أى:-الطِّينُ.

(مَّسۡنُونٖ)أى:–الْأَمْلَسُ (الْمُنْتِنُ)(الْمَصْبُوبُ)

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:-ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الخضراء.....تمشى فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ(أَىْ: أَمْلَسَ صَقِيلٍ).

وَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ مُجَاهِدٍ وَ الضَّحَّاكِ أَيْضًا:-أَنَّ الْحَمَأَ الْمَسْنُونَ هُوَ.

*مسلم (2996) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَ خُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ(اللهب المختلط بسواد النار)مِنْ نَارٍ وَ خُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ ﴿٢٨﴾

(فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ) فامتثلوا أمر ربهم ﴿٢٩﴾

(فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ)تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد و ذلك تعظيما لأمر الله

و إكراما لآدم حيث علم ما لم يعلموا ﴿٣٠﴾

(إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ)و هذه أول عداوته لآدم و ذريته﴿٣١﴾

قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

(يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ)

*يَذْكُرُ تَعَالَى تَنْوِيهَهُ بِذِكْرِ آدَمَ فِي مَلَائِكَتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ وَ تَشْرِيفَهُ إِيَّاهُ بِأَمْرِهِ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ.
وَ يَذْكُرُ تَخَلُّفَ إِبْلِيسَ عَدُوِّهِ عَنِ السُّجُودِ لَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ حَسَدًا وَ كُفْرًا وَ عِنَادًا وَ اسْتِكْبَارًا وَ افْتِخَارًا بِالْبَاطِلِ وَ لِهَذَا قَالَ:-{لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}
كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-{أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الْأَعْرَافِ: 12]
وَ قَوْلُهُ:{أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا} [الْإِسْرَاءِ: 62]
*فاستكبر على أمر الله و أبدى العداوة لآدم و ذريته و أعجب بعنصره و قال أنا خير من آدم .

(قَالَ)الله معاقبا له على كفره و استكباره
*يَقُولُ آمِرًا لِإِبْلِيسَ أَمْرًا كَوْنِيًّا لَا يُخَالَفُ وَ لَا يُمَانَعُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِى كَانَ فِيهَا مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى

(فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)أي مطرود مبعد من كل خير أَيْ: مَرْجُومٌ.

(وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ)أي الذم و العيب و البعد عن رحمة الله
*وَ إِنَّهُ قَدْ أَتْبَعَهُ لَعْنَةً لَا تَزَالُ مُتَّصِلَةً بِهِ لَاحِقَةً لَهُ مُتَوَاتِرَةً عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

(إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ)ففيها و ما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره و بعده من الخير
*وَ إِنَّهُ لَمَّا تَحَقَّقَ الْغَضَبُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ سَأَلَ مِنْ تَمَامِ حَسَدِهِ لِآدَمَ وَ ذُرِّيَّتِهِ النَّظِرَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ هُوَ يَوْمُ الْبَعْثِ وَ أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَهُ وَ إِمْهَالًا فَلَمَّا تَحَقَّقَ النَّظِرَةَ قَبَّحَهُ اللَّهُ:

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ)أمهلنى

(ليس المراد :انظر إليَّ–كقوله:"وما كانوا منظرين" و قوله"فنظرة الى ميسرة"أى تأخير و إمهال)

(إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

و ليس إجابة الله لدعائه كرامة فى حقه و إنما ذلك امتحان و ابتلاء من الله له و للعباد ليتبين الصادق الذى يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك و لذلك حذرنا منه غاية التحذير و شرح لنا ما يريده منا

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي)أَقْسَمَ بِإِغْوَاءِ اللهِ لَهُ.

(لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)أى أزين لهم الدنيا و أدعوهم إلى إيثارها على الأخرى حتى يكونوا منقادين لكل معصية

(وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)صدهم كلهم عن الصراط المستقيم كَمَا أَغْوَيْتَنِى و قَدَّرْتَ عَلَيَّ ذَلِكَ

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)أى الذين أخلصتهم و اجتبيتهم لإخلاصهم و إيمانهم و توكلهم

(قَالَ)الله(هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ)معتدل موصل إليَّ و إلى دار كرامتى

*مَرْجِعُكُمْ كُلُّكُمْ إِلَيَّ فَأُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَ إِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ كَمَا قَالَ{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}[الْفَجْرِ: 14]

*وَ قِيلَ: طَرِيقُ الْحَقِّ مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَ إِلَيْهِ تَنْتَهِى كَمَا قَالَ:{وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ}[النَّحْلِ: 9]

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات بسبب عبوديتهم لربهم و انقيادهم لأوامره أعانهم الله و عصمهم من الشيطان

(إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ)فرضي بولايتك و طاعتك بدلا من طاعة الرحمن

(مِنَ الْغَاوِينَ)و الغاوى:– ضد الراشد فهو الذى عرف الحق و تركه

و الضال:–الذى تركه من غير علم منه به

آياتَ التحدّي!

في ظل الانفتاح وكثرة الفتن وتجاوزات البعض؛ وحين أرى منكرًا؛ وأَضْعُفُ عن التوجيه والإنكار على فاعله؛ أتذكر (آيات التحدي) فَأَقْوَى ويشتدُّ عزمي، إنها تلك الآيات التي يحكي الله تعالى فيهنَّ التحدِّي الذي يخوضه إبليس وأعوانه ضدَّ المؤمنين:

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[٢]. الحجر: ٣٦-٤٢

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ)أى إبليس و جنوده جَهَنَّمُ مَوْعِدُ جَمِيعِ مَنِ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ كَمَا قَالَ عَنِ الْقُرْآنِ:-

{وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [هُود: 17]

(لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ)كل باب أسفل من الآخر

(لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ)أى من أتباع إبليس

(جُزْءٌ مَّقْسُومٌ)بحسب أعمالهم

***باب لليهود وَ بَابٌ لِلنَّصَارَى وَ بَابٌ لِلصَّابِئِينَ وَ بَابٌ لِلْمَجُوسِ وَ بَابٌ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا -وَ هُمْ كُفَّارُ الْعَرَبِ - وَ بَابٌ لِلْمُنَافِقِينَ وَ بَابٌ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ فَأَهْلُ التَّوْحِيدِ يُرجى لَهُمْ وَ لَا يُرجى لِأُولَئِكَ أَبَدًا.**

***قال الله تعالى(فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ94 وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)**[الشعراء]

***و لما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال و العذاب الشديد ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم و النعيم المقيم فقال:-**

ثواب المتقين يوم القيامة 45-50

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ)الذين اتقوا طاعة الشيطان و ما يدعوهم إليه من جميع الذنوب و العصيان

(فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)قد احتوت على جميع الأشجار و أينعت فيها جميع الثمار اللذيذة فى جميع الأوقات45

و يقال لهم حال دخولها: (ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ)

من الموت و النوم و النصب و اللغوب و انقطاع شيء من النعيم الذى هم فيه أو نقصانه و من المرض و الحزن و الهم و سائر المكدرات 46

(وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ)دغل و حسد فتبقى قلوبهم سالمة متصافية

(إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ)لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ فِي قَفَا بَعْضٍ.

*دل ذلك على تزاورهم و اجتماعهم و حسن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلا للآخر لا مستدبرا له متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش و اللؤلؤ و أنواع الجواهر.

*البخارى2440 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-

إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا(أوقفوا)بِقَنْطَرَةٍ(كل شىء ينصب على طرق واد أو جانبي نهر ونحوه)بَيْنَ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ فَيَتَقَاصُّونَ(من القصاص والمعنى يتراضون فيما بينهم ويتسامحون عما كان لبعضهم من تبعات على بعض)مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا(خلصوا من جميع الآثام ولم يبق على أحدهم أية تبعة من التنقية وهي تمييز الجيد من الرديء والتهذيب وهو التخليص)وَ هُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ(أكثر دلالة وأعرف)بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا47

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ)لا ظاهر و لا باطن

و ذلك لأن الله ينشئهم نشأة و حياة كاملة لا تقبل شيئا من الآفات

*الْمَشَقَّةُ وَ الْأَذَى كَمَا جَاءَ فِي البخاري 3819:-

إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قصب لَا صَخَبَ فِيهِ وَ لَا نَصَبَ"

(وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ)على سائر الأوقات.

*مسلم (2837) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:

يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا وَ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا وَ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا "

فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 43]48

*و لما ذكر ما يوجب الرغبة و الرهبة من مفعولات الله من الجنة و النار ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى

فقال:-(نَبِّئْ)أخبر(عِبَادِي)خبرا جازما مؤيدا بالأدلة

(أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته و مغفرته سَعَوا فى الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته و أقلعوا عن الذنوب و تابوا منها لينالوا مغفرته.

و مع هذا فلا ينبغى أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن و الإدلال49

فنبئهم(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذى لا يقادر قدره و لا يبلغ كنهه نعوذ به من عذابه فإنهم إذا عرفوا أنه {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ25 وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}[الفجر]

حذروا و أبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب

فالعبد ينبغى أن يكون قلبه دائما بين الخوف و الرجاء و الرغبة و الرهبة

*فإذا نظر إلى رحمة ربه و مغفرته و جوده و إحسانه ⇦أحدث له ذلك الرجاء و الرغبة

*و إذا نظر إلى ذنوبه و تقصيره في حقوق ربه ⇦أحدث له الخوف و الرهبة و الإقلاع عنها50

ضيف ابراهيم و قصتهم مع لوط 51-77

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:-(وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)

أى: عن تلك القصة العجيبة فإن فى قصك عليهم أنباء الرسل و ما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة و الاقتداء بهم خصوصا إبراهيم الخليل عليه السلام الذى أمرنا الله أن نتبع ملته

و (ضَيْفِ)ـه هم الملائكة الكرام أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.

*وَ الضَّيْفُ: يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَ الْجَمْعِ كَالزَّوْرِ و السُّفْر -

وَ كَيْفَ {دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ}أَيْ: خَائِفُونَ﴿٥١﴾

....

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

(إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا)أي: سلموا عليه فرد عليهم

(قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ)خائفون

لأنه لما دخلوا عليه و حسبهم ضيوفا ذهب مسرعا إلى بيته فأحضر لهم ضيافتهم عجلا حنيذا فقدمه إليهم52

*فلما رأى أيديهم لا تصل إليه خاف منهم أن يكونوا لصوصا أو نحوهم.

فـــ(قَالُوا۟)له:-(لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ)هو:-إسحاق عليه السلام تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى

(عَلِيمٍ)أي: كثير العلم و في الآية الأخرى(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)53

فـ(قَالَ)لهم متعجبا من هذه البشارة:-

(أَبَشَّرْتُمُونِى)بالولد(عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ)و صار نوع إياس منه

(فَبِمَ)أي:-على أي وجه(تُبَشِّرُونَ)و قد عُدِمَت الأسباب؟ 54

(قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ)الذي لا شك فيه لأن الله على كل شيء قدير

و أنتم بالخصوص-يا أهل هذا البيت-رحمة الله و بركاته عليكم فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم.

(فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ)الذين يستبعدون وجود الخير

بل لا تزال راجيا لفضل الله و إحسانه و بره و امتنانه55فأجابهم إبراهيم بقوله:-

(قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ)الذين لا علم لهم بربهم و كمال اقتداره

*و أما من أنعم الله عليه بالهداية و العلم العظيم فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب

و الوسائل و الطرق لرحمة الله شيئا كثيرا56

*ثم لما بشروه بهذه البشارة عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.

(قَالَ)الخليل عليه السلام للملائكة:–(فَمَا خَطْبُكُمْ)شأنكم(أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ)و لأى شيء أرسلتم؟57

(قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)أى: كثر فساده و عظم شرهم لنعذبهم و نعاقبهم58

(إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ)أى: إلا لوطا و أهله 59

(إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ)الباقين بالعذاب و أما لوط فسنخرجنه و أهله و ننجيهم منها

*فجعل إبراهيم يجادل الرسل فى إهلاكهم و يراجعهم فقيل له:{ يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [هود: 76]60

فذهبوا منه(فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ)لهم لوط

(إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ)أى لا أعرفكم و لا أدرى من أنتم 62

(قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ)بعذابهم(بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ)يشكون فيه و يكذبونك حين تعدهم به63

(وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ)الذى ليس بالهزل كَمَا قَالَ{مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ} [الْحِجْر: 8]

(وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)فيما قلنا لك64

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ)أى فى أثنائه حين تنام العيون و لا يدرى أحد عن مسراك

*يَذْكُرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهُ أَنْ يَسرى بِأَهْلِهِ بَعْدَ مُضِيِّ جَانِبٍ مِنَ اللَّيْلِ

(وَٱتَّبِعْ)سر أنت(أَدْبَٰرَهُمْ)وراءهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب

*وَ هَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِى فِي الغَزاة بِمَا كَانَ يَكُونُ سَاقَةً يُزجى الضَّعِيفَ وَ يَحْمِلُ الْمُنْقَطِعَ

*أبي داود 2639 - عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَهُمْ قَالَ:-

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ فَيُزْجِى الضَّعِيفَ وَ يُرْدِفُ وَ يَدْعُو لَهُمْ»

بادروا و أسرعوا(وَلَا)و احذروا أن(يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ)وراءه لئلا يرى العذاب فيصيبه كذلك

(وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)كأن معهم دليلا يدلهم إلى أين يتوجهون65

(وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ)أوحينا(إِلَيْهِ)أخبرناه خبرا لا مثنوية فيه

(أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ)أى:–قومك مستأصلون بالهلاك عن آخرهم(مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ)وقت الصبح

*أى سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم و يستأصلهم كَمَا قَالَ{إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}[هُود: 81]66

(وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ)التى فيها قوم لوط

(يَسۡتَبۡشِرُونَ)أى يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط و صباحة وجوههم و اقتدارهم عليهم و ذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم67

*فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط فجعلوا يعالجون لوطا على أضيافه و لوط يستعيذ منهم و يقول

(قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ)فى أضيافى و تنتهكوا منهم الأمر الشنيع فهم فى حمايتى68

(وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ)و خافوا عقاب الله و لا تتعرضوا لهم. راقبوا الله أول ذلك و إن كان ليس فيكم خوف من الله

(وَلَا تُخۡزُونِ)فتوقعونى فى الذل و الهوان بإيذائكم لضيوفى.

*فَأَرْشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ وَ مَا خَلَقَ لَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْهُنَّ مِنَ الْفُرُوجِ الْمُبَاحَةِ.
وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَيْضًا الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِه.
*هَذَا كُلُّهُ وَ هُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ وَ مَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَ مَاذَا يُصبحهم مِنَ الْعَذَابِ الْمُسْتَقِرِّ
*وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ:{لَعَمْرُكَ} لَعَيْشُكَ أَقْسَمَ تَعَالَى بِحَيَاةِ نَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ
وَ فِي هَذَا تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ وَ مَقَامٌ رَفِيعٌ وَ جَاهٌ عَرِيضٌ.

{ إِنَّهُمْ لَفِي فِي سَكْرَتِهِمْ}ضَلَالَتِهِمْ{يَعْمَهُونَ}يَلْعَبُونَ(يَتَحَيَّرُونَ)69

*فـــــــ(قَالُوٓاْ) له جوابا عن قوله و لا تخزون فقط:-

(أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ)أن تضيفهم فنحن قد أنذرناك و من أنذر فقد أعذر70

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

فـــــــ(قَالَ)لهم لوط من شدة الأمر الذى أصابه:-

(هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ)فلم يبالوا بقوله و لهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ 71

(لَعَمۡرُكَ)يقسم الخالق بمن يشاء و بما يشاء أما المخلوق فلا يجوز له القسم إلا بالله و قد أقسم الله تعالى بحياة محمد ﷺتشريفًا له

(إِنَّهُمۡ)أى:- قوم لوط(لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ)غفلتهم الشديدة

(يَعۡمَهُونَ)يترددون و يتمادون

*و هذه السكرة هى سكرة محبة الفاحشة التى لا يبالون معها بعذل و لا لوم.

فلما بينت له الرسل حالهم زال عن لوط ما كان يجده من الضيق و الكرب فامتثل أمر ربه و سرى بأهله ليلا فنجوا 72

و أما أهل القرية(فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ)صاعقة العذاب

(مُشۡرِقِينَ)وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد 73

(فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا)قلبنا عليهم مدينتهم

(وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ)طين متصلب متين تتبع فيها من شذ من البلد منهم74

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)المتأملين المتفكرين الذين لهم فكر و روية و فراسة يفهمون بها ما أريد بذلك من أن من تجرأ على معاصى الله خصوصا هذه الفاحشة العظيمة و أن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات كما تجرأوا على أشنع السيئات75

(وَإِنَّهَا)مدينة قوم لوط

*وَ إِنَّ قَرْيَةَ سَدُومَ الَّتِي أَصَابَهَا مَا أَصَابَهَا مِنَ الْقَلْبِ الصُّورِيِّ وَ الْمَعْنَوِيِّ وَ الْقَذْفِ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى صَارَتْ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً لَبِطَرِيقٍ مَهْيَعٍ مَسَالِكُهُ مُسْتَمِرَّةً إِلَى الْيَوْمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

(وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ138وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[الصافات]

(لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)للسالكين يعرفه كل من تردد فى تلك الديار 76

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

و فى هذه القصة من العبر:-

1-عنايته تعالى بخليله إبراهيم فإن لوطا عليه السلام من أتباعه و ممن آمن به فكأنه تلميذ له فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك

أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه السلام كى يبشروه بالولد و يخبروه بما بعثوا له حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم حتى أقنعوه فطابت نفسه.

و كذلك لوط عليه السلام لما كانوا أهل وطنه فربما أخذته الرقة عليهم و الرأفة بهم قدَّر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه و حنقه عليهم حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له:(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

2-أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه77

(وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ)البستان كثير الأشجار

و هؤلاء هم قوم شعيب نعتهم الله و أضافهم إلى الأيكة و هو ليذكر نعمته عليهم و أنهم ما قاموا بها بل جاءهم نبيهم شعيب فدعاهم إلى التوحيد و ترك ظلم الناس فى المكاييل و الموازين و عاجلهم على ذلك على أشد المعالجة

(لَظَالِمِينَ)فاستمروا على ظلمهم فى حق الخالق و فى حق الخلق و لهذا وصفهم هنا بالظلم ﴿٧٨﴾

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ)فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم.

(وَإِنَّهُمَا)أى: ديار قوم لوط و أصحاب الأيكة

أصحاب الأيكة و أصحاب الحجر 78-86

(لَبِإِمَامٍ)لبطريق

(مُّبِينٍ)واضح يمر بهم المسافرون كل وقت فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار فيعتبر بذلك أولوا الألباب.

*وَ لِهَذَا لَمَّا أَنْذَرَ شُعَيْبٌ قَوْمَهُ قَالَ فِي نِذَارَتِهِ إِيَّاهُمْ:-(وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)هود:89 ﴿٧٩﴾

(وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ)المعروف فى أرض الحجاز و هم قوم صالح

(ٱلۡمُرۡسَلِينَ)كذبوا صالحا و من كذب رسولا فقد كذب سائر الرسل لاتفاق دعوتهم و ليس تكذيب بعضهم لشخصه بل لما جاء به من الحق الذى اشترك جميع الرسل بالإتيان به﴿٨٠﴾

(وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا)الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق التى من جملتها: – تلك الناقة التى هى من آيات الله العظيمة.

(فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ)كبرا و تجبرا على الله ﴿٨١﴾

(وَكَانُواْ)من كثرة إنعام الله عليهم(يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ)من المخاوف مطمئنين فى ديارهم

*فلو شكروا النعمة و صدقوا نبيهم صالحا عليه السلام لأدرَّ الله عليهم الأرزاق و لأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل و الآجل و لكنهم – لما كذبوا و عقروا الناقة و عتوا عن أمر ربهم و قالوا:–

(يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)

*البخارى 433 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-
لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لاَ يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ﴿٨٢﴾

(فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ)وَقْتَ الصَّبَاحِ مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ.فتقطعت قلوبهم فى أجوافهم و أصبحوا فى دارهم جاثمين هلكى مع ما يتبع ذلك من الخزى و اللعنة المستمرة﴿٨٣﴾

(فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ)لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود و لا قوة أنصار و لا غزارة أموال﴿٨٤﴾

(وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ)ما خلقناهما عبثا و باطلا كما يظن ذلك أعداء الله

بل ما خلقناهما(إِلَّا بِٱلۡحَقِّ)بالعدل(لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)[النَّجْم: 31]

وَ قَالَ(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)[ص: 27]

وَ قَالَ(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ115 فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)[الْمُؤْمِنُونَ]

*الذى منه أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما و اقتداره و سعة رحمته و حكمته و علمه المحيط و أنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له

(وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ)لا ريب فيها لخلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس

(فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ)و هو الصفح الذى لا أذية فيه بل يقابل إساءة المسىء بالإحسان

و ذنبه بالغفران لتنال من ربك جزيل الأجر و الثواب فإن كل ما هو آت فهو قريب و قد ظهر لى معنى أحسن مما ذكرت هنا. و هو: أن المأمور به هو:–

(ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ)لحسن الذي قد سلم من الحقد و الأذية القولية و الفعلية دون الصفح الذى ليس بجميل و هو الصفح في غير محله فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة و هذا هو المعنى﴿٨٥﴾

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ)لكل مخلوق

(ٱلۡعَلِيمُ)بكل شيء فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه و جرى عليه خلقه و ذلك سائر الموجودات﴿٨٦﴾

يقول تعالى ممتنًّا على رسوله(وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي)و هن–على الصحيح–السور السبع الطوال:–

«البقرة»و«آل عمران»و«النساء»و«المائدة»و«الأنعام»و«الأعراف»و« الأنفال »مع« التوبة »

أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات فيكون عطف (وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ)

على ذلك من باب عطف العام على الخاص لكثرة ما فى المثانى من التوحيد و علوم الغيب و الأحكام الجليلة و تثنيتها فيها.

فضل الله على نبيه و بعض التوجيهات و البشارات 87-99

و على القول بأن « الفاتحة » هى السبع المثانى معناها:–

أنها سبع آيات تثنى فى كل ركعة و إذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثانى كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون و أعظم ما فرح به المؤمنون

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس: 58] ﴿٨٧﴾

و لذلك قال بعده:–(لَا تَمُدَّنَّ)تنظر بـــ(عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ)و تتمنَّ(مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ)

(أَزۡوَٰجٗا)أصنافًا(مِّنۡهُمۡ)من الكفار مِن مُتَع الدنيا

أى:لا تعجب إعجابا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التى تمتع بها المترفون و اغترَّ بها الجاهلون و استغن بما آتاك الله من المثانى و القرآن العظيم(عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ)

(وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ)

فإنهم لا خير فيهم يرجى و لا نفع يرتقب فلك فى المؤمنين عنهم أحسن البدل و أفضل العوض

(وَٱخۡفِضۡ)ألن لهم(جَنَاحَكَ)جانبك(لِلۡمُؤۡمِنِينَ)و حسِّن لهم خلقك محبة و إكراما و تودُّدا

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[الشُّعَرَاءِ: 215]

كَمَا قَالَ(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[التَّوْبَة: 128]﴿٨٨﴾

(وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ)

قم بما عليك من النذارة و أداء الرسالة و التبليغ للقريب و البعيد و العدو و الصديق

فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شيء و ما من حسابك عليهم من شيء﴿٨٩﴾

(كَمَآ أَنزَلۡنَا)العقوبة

(عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ)

الْمُتَحَالِفِينَ الذين تَحَالَفُوا عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَ تَكْذِيبِهِمْ وَ أَذَاهُمْ الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ صَالِحٍ(قَالُوا تَقَاسَمُوا)تَحَالَفُوا(بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ)[النَّمْلِ: 46]أَيْ:نَقْتُلُهُمْ لَيْلًا﴿٩٠﴾

ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾
وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

16-سورة النحل-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ
تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ
لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

(ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ)أصنافا و أعضاء و أجزاء يصرفونه بحسب ما يهوونه

فمنهم من يقول: سحر و منهم من يقول: كهانة و منهم من يقول: مفترى

إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به الذين جعلوا قدحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى.

مظاهر وحدانية الله و قدرته 1-23

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)جميع من قدح فيه و عابه وحرفه و بدله

(عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)و في هذا أعظم ترهيب و زجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه .

(فَٱصْدَعْ)فاجهر بدعوة الحق(بِمَا تُؤْمَرُ)التي أمرك الله بها

*ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم و لا بغيرهم و أن يصدع بما أمر الله و يعلن بذلك لكل أحد و لا يعوقنه عن أمره عائق و لا تصده أقوال المتهوكين

(وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ)لا تبال بهم و اترك مشاتمتهم و مسابتهم مقبلا على شأنك

(إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ)بك و بما جئت به و هذا وعد من الله لرسوله أن لا يضره المستهزئون

و أن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.

و قد فعل تعالى فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺو بما جاء به:– إلا أهلكه الله و قتله شر قتلة.

*بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ لَا تَلْتَفِتْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ.

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) [القَلَم: 9] وَ لَا تخفهم فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ إِيَّاهُمْ وَ حَافِظُكَ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [المَائِدَة: 67]

ثم ذكر وصفهم و أنهم كما يؤذونك يا رسول الله فإنهم أيضا يؤذون الله و يجعلون معه:-

(ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ)و هو ربهم و خالقهم و مدبرهم

(فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ)غب أفعالهم إذا وردوا القيامة

(وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ)ينقبض(صَدۡرُكَ)أيها الرسول

(بِمَا يَقُولُونَ)لك من التكذيب و الاستهزاء

فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب و التعجيل لهم بما يستحقون و لكن الله يمهلهم و لا يهملهم.

(فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ)أى: أكثر من:-

1-ذكر الله 2-و تسبيحه 3-و تحميده 4-و الصلاة

⇦فإن ذلك يوسع الصدر و يشرحه و يعينك على أمورك

*أبي داود1289-عَنْ نُعَيْمِ بْنِ عمَّارٍقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: -
يَا ابْنَ آدَمَ لَا تُعْجِزْنِي مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فِي أَوَّلِ نَهَارِكَ أَكْفِكَ آخِرَهُ "
*مسلم 83 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺكَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ

(وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ)الموت

أى: استمر فى جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات فامتثل ﷺأمر ربه فلم يزل دائبا في العبادة حتى أتاه اليقين من ربه ﷺتسليما كثيرا.

و الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ أَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ قَالُوا:-(لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ43وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ44وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ45وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ46حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ}[الْمُدَّثِّر]٩٩

16-تفسير سورة النحل- مكية-بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول تعالى – قربا لما وعد به محققا لوقوعه-

(أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ)فإنه آت وما هو آت فإنه قريب

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَ دُنُوِّهَا مُعَبِّرًا بِصِيغَةِ الْمَاضِى الدَّالِّ عَلَى التَّحَقُّقِ وَ الْوُقُوعِ لَا مَحَالَةَ كَمَا قَالَ(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}[الْأَنْبِيَاء: 1] وَ قَالَ:(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}[الْقَمَر: 1]

(فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ)يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى اللَّهِ وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْعَذَابِ وَ كِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ53يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}[الْعَنْكَبُوت]

(سُبۡحَٰنَهُۥ)تنزه(وَتَعَٰلَىٰ)تعاظم(عَمَّا يُشۡرِكُونَ)من نسبة الشريك و الولد و الصاحبة و الكفء

و غير ذلك مما نسبه إليه المشركون مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله١

*و لما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه ذكر الوحى الذى ينزله على أنبيائه مما يجب اتباعه فى ذكر ما ينسب لله من صفات الكمال فقال:-

(يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ)بالوحى الذى به حياة الأرواح(مِنۡ أَمۡرِهِۦ)

(عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ)ممن يعلمه صالحا لتحمل رسالته و زبدة دعوة الرسل كلهم و مدارها على قوله:-

(أَنۡ أَنذِرُوٓاْ)خوِّفوا الناس من الشرك(أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ)لا معبود بحق(إِلَّآ أَنَا۠)

(فَٱتَّقُونِ)بأداء فرائضى وإفرادى بالعبادة و الإخلاص.

أى:على معرفة الله تعالى و توحده فى صفات العظمة التى هى صفات الألوهية و عبادته وحده لا شريك له فهى التى أنزل الله بها كتبه و أرسل رسله و جعل الشرائع كلها تدعو إليها و تحث و تجاهد من حاربها و قام بضدها ﴿٢﴾

*هذه السورة تسمى سورة النعم فإن الله ذكر فى أولها أصول النعم و قواعدها و فى آخرها متمماتها و مكملاتها فأخبر أنه(خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ)ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما و ما له من نعوت الكمال و يعلموا أنه خلقهما مسكنا لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به فى الشرائع التى أنزلها على ألسنة رسله

*كل ذَلِكَ مَخْلُوقٌ بِالْحَقِّ لَا لِلْعَبَثِ بَلْ {لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}[النَّجْمِ: 31]

و لهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال:-

(تَعَٰلَىٰ)تنزه و تعاظم(عَمَّا يُشۡرِكُونَ)فإنه الإله حقا الذى لا تنبغى العبادة و الحب و الذل إلا له تعالى﴿٣﴾

*و لما ذكر خلق السماوات و الأرض ذكر خلق ما فيهما و بدأ بأشرف ذلك و هو الإنسان فقال:-

(خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ)ماء مهين

لم يزل يدبرها و يرقيها و ينميها حتى صارت بشرا تاما كامل الأعضاء الظاهرة و الباطنة قد غمره بنعمه الغزيرة حتى إذا استتم فخر بنفسه و أعجب بها

(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ)يَقْوى و يغترُّ فإذا به فيصبح شديد الخصومة و الجدال لربه فى إنكار البعث و غير ذلك، كقوله: {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} و نسى الله الذى خلقه من العدم.

يحتمل أن المراد:-

1-فإذا هو خصيم لربه يكفر به و يجادل رسله و يكذب بآياته و نسى خلقه الأول و ما أنعم الله عليه به من النعم فاستعان بها على معاصيه

2–أن الله أنشأ الآدمى من نطفة ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور حتى صار عاقلا متكلما ذا ذهن و رأى:– يخاصم و يجادل فليشكر العبد ربه الذى أوصله إلى هذه الحال التى ليس فى إمكانه القدرة على شىء منها﴿٤﴾

(وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ)لأجلكم و لأجل منافعكم و مصالحكم

من جملة منافعها العظيمة أن لكم

(فِيهَا دِفۡءٞ)مما تتخذون من أصوافها و أوبارها و أشعارها و جلودها من الثياب و الفرش و البيوت.

(وَ)لكم فيها(وَمَنَٰفِعُ)غير ذلك

*يَمْتَنُّ تَعالَى عَلَى عِبادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَ هِيَ الْإِبِلُ وَ الْبَقَرُ وَ الْغَنَمُ كَمَا فَصَّلَهَا فى سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ وَ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَ الْمَنَافِعِ مِنْ أَصْوَافِهَا و أَوْبَارِهَا و أَشْعَارِهَا يَلْبَسُونَ وَ يَفْتَرِشُونَ

(وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ)وَ مِنْ أَلْبَانِهَا يَشْرَبُونَ وَ يَأْكُلُونَ مِنْ أَوْلَادِهَا وَ مَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ وَ هُوَ الزِّينَةُ﴿٥﴾

وَ لِهَذَا قَالَ:–(وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ)وَ هُوَ وَقْتُ رُجُوعِهَا عَشِيًّا(وقت الرواح:المساء)مِنَ الْمَرْعَى فَإِنَّهَا تَكُونُ أَمَدّه خَوَاصِرَ وَ أَعْظَمَهُ ضُرُوعًا وَ أَعْلَاهُ أَسْنِمَةً(ليس المراد:- الراحة)

(وَحِينَ تَسۡرَحُونَ)أَيْ: غُدوة حِينَ تَبْعَثُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى.

*أي: فى وقت راحتها و سكونها و وقت حركتها و سرحها و ذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شىء فإنكم أنتم الذين تتجملون بها كما تتجملون بثيابكم و أولادكم و أموالكم و تعجبون بذلك ﴿٦﴾

وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾

(وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ)من الأحمال الثقيلة بل و تحملكم أنتم

(إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ)و لكن الله ذللها لكم.

فمنها ما تركبونه و منها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة و الأقطار الشاسعة

*وَ ذَلِكَ فِي الْحَجِّ وَ الْعُمْرَةِ وَ الْغَزْوِ وَ التِّجَارَةِ وَ مَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ تَسْتَعْمِلُونَهَا فِي أَنْوَاعِ الِاسْتِعْمَالِ مِنْ رُكُوبٍ وَ تَحْمِيلٍ كَمَا قَالَ{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ21 وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} [الْمُؤْمِنُونَ]

وَ قَالَ {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ79 وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ80 وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ} [غَافِرٍ]

(إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ)إذ سخر لكم ما تضطرون إليه و تحتاجونه فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه و عظيم سلطانه و سعة جوده و بره.

(وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ)سخرناها لكم

(لِتَرۡكَبُوهَا)أي: تارة تستعملونها للضرورة فى الركوب و تارة لأجل الجمال (وَزِينَةٗ)

و لم يذكر الأكل لأن البغال و الحمر محرم أكلها و الخيل لا تستعمل–فى الغالب–للأكل بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفا من انقطاعها و إلا فقد ثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺأذن فى لحوم الخيل.

*البخارى4219 عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-

«نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ وَ رَخَّصَ فِي الخَيْلِ»

* مسلم(1942) عَنْ أَسْمَاءَ قَالَتْ:-«نَحَرْنَا فَرَسًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَكَلْنَاهُ»
(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)
مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التى يركبها الخلق فى البر و البحر و الجو و يستعملونها فى منافعهم و مصالحهم فإنه لم يذكرها بأعيانها لأن الله تعالى لا يذكر فى كتابه إلا ما يعرفه العباد أو يعرفون نظيره
*و أما ما ليس له نظير فى زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه و لم يفهموا المراد منه فيذكر أصلا جامعا يدخل فيه ما يعلمون و ما لا يعلمون كما ذكر نعيم الجنة و سمى منه ما نعلم و نشاهد نظيره كالنخل و الأعناب و الرمان و أجمل ما لا نعرف له نظيرا فى قوله:-(فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)
فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب كالخيل و البغال و الحمير و الإبل و السفن و أجمل الباقى فى قوله:-
(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)
*و لما ذكر تعالى الطريق الحسي و أن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل و غيرها ذكر الطريق المعنوى الموصل إليه فقال:-
(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)الصراط المستقيم الذى هو أقرب الطرق و أخصرها موصل إلى الله.
(وَمِنْهَا جَائِرٌ)حَائِدٌ مَائِلٌ زَائِغٌ عَنِ الْحَقِّ.
و أما الطريق الجائر فى عقائده و أعماله و هو:-
كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله موصل إلى دار الشقاء فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم و ضل الغاوون عنه وسلكوا الطرق الجائرة
*هِيَ الطُّرُقُ الْمُخْتَلِفَةُ وَ الْآرَاءُ وَ الْأَهْوَاءُ الْمُتَفَرِّقَةُ كَالْيَهُودِيَّةِ وَ النَّصْرَانِيَّةِ وَ الْمَجُوسِيَّةِ
(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)و لكنه هدى بعضا كرما و فضلا و لم يهد آخرين حكمة منه و عدلا.
*لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَا يُسَار عَلَيْهِ فِي السُّبُلِ الْحِسِّيَّةِ نَبَّهَ عَلَى الطُّرُقِ الْمَعْنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِوَ كَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ الْعُبُورُ مِنَ الْأُمُورِ الْحِسِّيَّةِ إِلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ النَّافِعَةِ الدِّينِيَّةِ كَمَا قَالَ{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [البَقَرَة: 197] وَ قَالَ:{يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأَعْرَاف: 26]
(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)
تتفكرون بذلك على كمال قدرة الله الذى أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف و رحمته
حيث جعل فيه ماء غزيرا(لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ)و تشرب مواشيهم
(وَمِنْهُ شَجَرٌ)و أخرج لكم به شجرًا(فِيهِ تُسِيمُونَ)تَرْعَوْن فيه دوابّكم و يعود عليكم دَرُّها و نفعُها﴿١٠﴾
(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ)
و يسقون منه حروثهم فتخرج لهم الثمرات الكثيرة و النعم الغزيرة.

يُخرج لكم من الأرض بهذا الماء الواحد الزروع المختلفة

و يُخرج به(وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ)

(وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ)و يُخرج به كل أنواع الثمار و الفواكه.

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ)الإخراج(لَأٓيَةٗ)لدلالةً واضحة(لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ)يتأملون فيعتبرون﴿١١﴾

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ)أى: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم و أنواع مصالحكم بحيث لا تستغنون عنها أبدا

فبالليل تسكنون و تنامون و تستريحون

(وَٱلنَّهَارَ)تنتشرون فى معايشكم و منافع دينكم و دنياكم

(وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ)من الضياء و النور و الإشراق و إصلاح الأشجار و الثمار و النبات و تجفيف الرطوبات

و إزالة البرودة الضارة للأرض و للأبدان و غير ذلك من الضروريات و الحاجيات التابعة لوجود الشمس

و القمر.

(وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ)

و فيهما و فى النجوم من الزينة للسماء و الهداية فى ظلمات البر و البحر و معرفة الأوقات و حساب الأزمنة

ما تتنوع دلالاتها و تتصرف آياتها

و لهذا جمعها فى قوله(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ)

لمن لهم عقول يستعملونها فى التدبر و التفكر فيما هي مهيأة له مستعدة تعقل ما تراه و تسمعه لا كنظر

الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التى لا عقل لها﴿١٢﴾

(وَمَا ذَرَأَ)نشر الله

(لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ)و نشر للعباد من كل ما على وجه الأرض من حيوان و أشجار و نبات

(مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ)و تختلف منافعه آية على كمال قدرة الله و عميم إحسانه و سعة بره و أنه الذى لا تنبغى العبادة

إلا له وحده لا شريك له

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ)يستحضرون فى ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع و يتأملون

ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه﴿١٣﴾

(وَهُوَ)وحده لا شريك له(ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ)و هيأه لمنافعكم المتنوعة

(لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا)و هو السمك و الحوت الذى يصطادونه منه

(وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا)فتزيدكم جمالا و حسنا إلى حسنكم

(وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ)السفن و المراكب

(مَوَاخِرَ فِيهِ)تشقه أى: تمخر فى البحر العجاج الهائل بمقدمها حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر تحمل المسافرين و أرزاقهم و أمتعتهم و تجاراتهم التى يطلبون بها الأرزاق و فضل الله عليهم.

(وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)

الذى يسر لكم هذه الأشياء و هيأها و تثنون على الله الذى منَّ بها فلله تعالى الحمد و الشكر و الثناء حيث أعطى العباد من مصالحهم و منافعهم فوق ما يطلبون و أعلى ما يتمنون و آتاهم من كل ما سألوه لا نحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه﴿١٤﴾

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

(وَأَلْقَىٰ)الله تعالى لأجل عباده (فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ)الجبال العظام

(أَن)لئلا(تَمِيدَ بِكُمْ)و تضطرب بالخلق فيتمكنون من حرث الأرض و البناء و السير عليها

و من رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارا يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم و سقى مواشيهم و حروثهم

(وَأَنْهَٰرًا)على وجه الأرض

(وَأَنْهَٰرًا)فى بطنها يستخرجونها بحفرها حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالى و الآلات و نحوها

و من رحمته أن جعل فى الأرض(وَسُبُلًا)طرقا توصل إلى الديار المتنائية

*وَ كَذَلِكَ جَعَلَ فِيهَا سُبُلًا أَيْ: طُرُقًا يُسْلَكُ فِيهَا مِنْ بِلَادٍ إِلَى بِلَادٍ حَتَّى إِنَّهُ تَعَالَى لَيَقْطَعُ الْجَبَلَ حَتَّى يَكُونَ مَا بَيْنَهُمَا مَمَرًّا وَ مَسْلَكًا كَمَا قَالَ{وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا} [الْأَنْبِيَاءِ: 31]

(لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)السبيل إليها حتى إنك تجد أرضا مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها و قد جعل الله فيما بينها منافذ و مسالك للسالكين 15

(وَعَلَٰمَٰتٍ)دَلَائِلَ مِنْ جِبَالٍ كِبَارٍ وَ آكَامٍ صِغَارٍ وَ نَحْوِ ذَلِكَ يَسْتَدِلُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ برًا وَ بَحْرًا إِذَا ضَلُّوا الطَّرِيقَ بِالنَّهَارِ.

(وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)أَيْ: فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ 16

*لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة و ما أنعم به من النعم العميمة ذكر أنه لا يشبهه أحد و لا كفء له و لا ند له فقال:(أَفَمَن يَخْلُقُ)جميع المخلوقات و هو الفعال لما يريد

(كَمَن لَّا يَخْلُقُ)شيئا لا قليلا و لا كثيرا

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره فإنه واحد في إلهيته و توحيده و عبادته. و كما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم و أنشأ غيركم فلا تجعلوا له أندادا في عبادته بل أخلصوا له الدين ١٧

(وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ)عددا مجردا عن الشكر

(لَا تُحْصُوهَا)(Î)

فضلا عن كونكم تشكرونها فإن نعمه الظاهرة و الباطنة على العباد بعدد الأنفاس و اللحظات من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد و مما لا يعرفون و ما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى

(إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ)يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

(رَّحِيمٌ)و كما أن رحمته واسعة وجوده عميم و مغفرته شاملة للعباد فعلمه محيط بهم١٨

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ)بخلاف من عبد من دونه فإنهم

(لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا)قليلا و لا كثيرا

(وَهُمْ يُخْلَقُونَ)فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟

و مع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم و لا غيره كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ:-

{أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ95 وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصَّافَّاتِ] ٢٠

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)فلا تسمع و لا تبصر و لا تعقل شيئا أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين فتبا لعقول المشركين ما أضلها و أفسدها حيث ضلت في أظهر الأشياء فسادا و سووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال و لا شيء من الأفعال و بين الكامل من جميع الوجوه الذى له كل صفة كمال و له من تلك الصفة أكملها و أعظمها

و هذا مما يتسلى به المصاب عن ألم المصيبة أن يتذكر نعم الله عليه و هى أكثر من أن تحصى

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)فله العلم المحيط بكل الأشياء و القدرة العامة و الرحمة الواسعة التى ملأت جميع العوالم و الحمد و المجد و الكبرياء و العظمة التى لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه ﴿٢١﴾

و لهذا قال:–(إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)و هو الله الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد و لم يكن له كفوا أحد.

فأهل الإيمان و العقول أجلته قلوبهم و عظمته و أحبته حبا عظيما و صرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية و المالية و أعمال القلوب و أعمال الجوارح و أثنوا عليه بأسمائه الحسنى و صفاته و أفعاله المقدسة *يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ وَ أَخْبَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ تُنكر قُلُوبُهُمْ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ ذَلِكَ:-{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}[ص:5]

وَ قَالَ{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[الزُّمَر:45]

(فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ)

لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلا و عنادا و هــو:–توحيد الله

(وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)عن عبادته﴿٢٢﴾

(لَا جَرَمَ)أى:—حقا لا بد(أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)من الأعمال القبيحة

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)بل يبغضهم أشد البغض و سيجازيهم من جنس عملهم كقوله:-

{إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غافر: 60]﴿٢٣﴾

يقول تعالى – مخبرا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله:–

(وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ)

أى: إذا سألوا عن القرآن و الوحى الذى هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد فماذا قولكم به؟

و هل تشكرون هذه النعمة و تعترفون بها أم تكفرون و تعاندون ؟

جزاء المستكبرين فى الدنيا و الآخرة 24-29

فيكون جوابهم أقبح جواب و أسمجه

فيقولون عنه:—إنه (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

أى: كذب اختلقه محمد على الله و ما هو إلا قصص الأولين التى يتناقلها الناس جيلا بعد جيل منها الصدق و منها الكذب فقالوا هذه المقالة و دعوا أتباعهم إليها﴿٢٤﴾

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)و حملوا وزرهم و وزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.

(وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ)

أى:من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه فيحملون إثم ما دعوهم إليه

و أما الذين يعلمون فكلٌّ مستقلٌّ بجرمه لأنه عرف ما عرفوا

(أَلَا سَآءَ)بئس (مَا يَزِرُونَ)يحملون من الوزر المثقل لظهورهم من وزرهم و وزر من أضلوه.

*إِنَّمَا قَدَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ فَيَتَحَمَّلُوا أَوْزَارَهُمْ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَتْبَعُونَهُمْ وَ يُوَافِقُونَهُمْ أَيْ:-
يَصِيرُعَلَيْهِمْ خَطِيئَةُ ضَلَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَ خَطِيئَةُ إِغْوَائِهِمْ لِغَيْرِهِمْ وَ اقْتِدَاءِ أُولَئِكَ بِهِمْ

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:مسلم(2674) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:-
مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا
وَ مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(٢٥)

(قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ)

برسلهم و احتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به و بنوا من مكرهم قصورا هائلة

*هَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَلِ لِإِبْطَالِ مَا صَنَعَهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ أَشْرَكُوا فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ كَمَا قَالَ نُوحٌ عليه السلام:-
{وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} [نُوحٍ: 22]

*احْتَالُوا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ وَ أَمَالُوهُمْ إِلَى شِرْكِهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ كَمَا يَقُولُ لَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:-
{بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا}[سَبَأٍ: 33]

(فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ)أي: جاءها الأمر من أساسها و قاعدتها

*اجْتَثَّهُ مِنْ أَصْلِهِ وَ أَبْطَلَ عَمَلَهُمْ وَ أَصْلَهَا كَمَا قَالَ{كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ} [الْمَائِدَةِ: 64]
وَ قَوْلُهُ: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} [الْحَشْرِ: 2]

(فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ)فصار ما بنوه عذابا عُذِّبُوا به

(وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ)

و ذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم و يقيهم العذاب فصار عذابهم فيما بنوه و أصَّلوه.

و هذا من أحسن الأمثال فى إبطال الله مكر أعدائه.

فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم و جعلوا لهم أصولا و قواعد من الباطل يرجعون إليها

و يردون بها ما جاءت به الرسل و احتالوا أيضا على إيقاع المكروه و الضرر بالرسل و من تبعهم

فصار مكرهم وبالا عليهم فصار تدبيرهم فيه تدميرهم و ذلك لأن مكرهم سيئ

(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ)هذا فى الدنيا و لعذاب الآخرة أخزى (٢٦)

و لهذا قال:

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ)يفضحهم على رءوس الخلائق و يبين لهم كذبهم و افتراءهم على الله.

*يُظْهِرُ فَضَائِحَهُمْ و مَا كَانَتْ تُجنه ضَمَائِرُهُمْ فَيَجْعَلُهُ عَلَانِيَةً كَمَا قَالَ{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [الطَّارِق: 9]

أَيْ:تَظْهَرُ و تَشْتَهِرُ كَمَا فِي البخارى6178 - عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-

إِنَّ الغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ:-هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ "

(وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ)تحاربون و تعادون الله و حزبه

(فِيهِمْ ۚ)لأجلهم و تزعمون أنهم شركاء لله

فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم و الاعتراف بعنادهم فيقولون:–

{ ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} [الأعراف: 37]

(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)العلماء الربانيون

(إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ)أى:–يوم القيامة(وَالسُّوءَ)أي: العذاب

(عَلَى الْكَافِرِينَ)و فى هذا فضيلة أهل العلم و أنهم الناطقون بالحق فى هذه الدنيا و يوم يقوم الأشهاد و أن لقولهم اعتبارا عند الله و عند خلقه﴿٢٧﴾

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة و فى القيامة فقال:–

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ)أى:تتوفاهم فى هذه الحال التى كثر فيها ظلمهم و غيهم و قد علم ما يلقى الظلمة فى ذلك المقام من أنواع العذاب و الخزى و الإهانة.

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِى أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ احْتِضَارِهِمْ وَ مَجِىءِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ

(فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ)استسلموا و أنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله

*أَظْهَرُوا السَّمْعَ وَ الطَّاعَةَ وَ الِانْقِيَادَ و قالوا:–(مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ)كَمَا يَقُولُونَ يَوْمَ الْمَعَادِ:-

{وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}[الأنعام: 23]{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}[المُجَادَلَةِ: 18]

فيقال لهم:–

(بَلَىٰٓ)كنتم تعملون السوء فـــ (إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)فلا يفيدكم الجحود شيئا

و هذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه فى الدنيا ظنا أنه ينفعهم فإذا شهدت عليهم جوارحهم

و تبين ما كانوا عليه أقروا و اعترفوا(٢٨)

و لهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

(فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا)كلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم

(فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ)نار جهنم فإنها مثوى الحسرة و الندم و منزل الشقاء و الألم

و محل الهموم و الغموم و موضع السخط من الحى القيوم لا يفتَّر عنهم من عذابها

و لا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها قد أعرض عنهم الرب الرحيم و أذاقهم العذاب العظيم(٢٩)

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ)على النبى محمد ﷺ؟(قَالُوا۟ خَيْرًا)قالوا:-أنزل الله عليه الخير و الهدى.

لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله ذكر ما قاله المتقون و أنهم اعترفوا و أقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة

و خير عظيم امتن الله به على العباد فقبلوا تلك النعمة و تلقوها بالقبول و الانقياد و شكروا الله عليها فعلموها

و عملوا لها

جزاء المتقين يوم القيامة و تهديد المشركين 30-34

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟)فى عبادة الله تعالى و أحسنوا إلى عباد الله فلهم

(فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ)رزق واسع و عيشه هنية و طمأنينة قلب و أمن و سرور كَمَا قَالَ:-

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النَّحْلِ: 97]

أَيْ: مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.

(وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ)من هذه الدار و ما فيها من أنواع اللذات و المشتهيات فإن هذه نعيمها قليل محشو

بالآفات منقطع بخلاف نعيم الآخرة

*ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّ دَارَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ أَىْ: مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْجَزَاءُ فِيهَا أَتَمُّ مِنَ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا

كَمَا قَالَ{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ}[الْقَصَصِ: 80]وَ قَالَ{وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ} [آلِ عِمْرَانَ: 198]

وَ قَالَ{وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[الأَعْلَى: 17] وَ قَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ{وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى}[الضُّحَى: 4]

و لهذا قال:(وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ) ﴿٣٠﴾

(جَنَّٰتُ عَدۡنٖ)مقامة

(يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ)كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الزُّخْرُفِ: 71]

*أى:مهما تمنته أنفسهم و تعلقت به إرادتهم حصل لهم على أكمل الوجوه و أتمها فلا يمكن أن يطلبوا نوعا من أنواع النعيم الذى فيه لذة القلوب و سرور الأرواح إلا و هو حاضر لديهم و لهذا يعطى الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم.

فتبارك الذى لا نهاية لكرمه و لا حد لجوده الذى ليس كمثله شيء فى صفات ذاته و صفات أفعاله و آثار تلك النعوت و عظمة الملك و الملكوت

(كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ)لسخط الله و عذابه بـ:-

1-أداء ما أوجبه عليهم من الفروض و الواجبات المتعلقة بـالقلب و البدن و اللسان من حقه و حق عباده

2-و ترك ما نهاهم الله عنه ﴿٣١﴾

(ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ)مستمرين على تقواهم

(طَيِّبِينَ)ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمْ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ أَنَّهُمْ طَيِّبُونَ أَيْ: مُخَلَّصُونَ مِنَ الشِّرْكِ و الدنس وَ كُلِّ سُوءٍ

*أى:طاهرين مطهرين من كل نقص و دنس يتطرق إليهم و يخل فى إيمانهم فطابت قلوبهم بمعرفة الله و محبته و ألسنتهم بذكره و الثناء عليه و جوارحهم بطاعته و الإقبال عليه

(يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ)أى: التحية الكاملة حاصلة لكم و السلامة من كل آفة.

و قد سلمتم من كل ما تكرهون *وَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَ تُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ كَمَا قَالَ{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}[فُصِّلَتْ]

(ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)من الإيمان بالله و الانقياد لأمره

فإن العمل هو السبب و المادة و الأصل فى دخول الجنة و النجاة من النار و ذلك العمل حصل لهم برحمة الله و منته عليهم لا بحولهم و قوتهم﴿٣٢﴾

(هَلۡ يَنظُرُونَ)يقول تعالى:هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا و ذكّروا فلم يتذكروا

(إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ)لقبض أرواحهم

(أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ)بالعذاب الذى سيحل بهم فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم

(كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ)كذبوا و كفروا ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب.

*هَكَذَا تَمَادَى فِي شِرْكِهِمْ أَسْلَافُهُمْ وَ نُظَرَاؤُهُمْ وَ أَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَ اللَّهِ وَ حَلُّوا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَ النَّكَالِ.

(وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ)إذ عذبهم

(وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها و تركوا ما خلقت له و عرضوها للإهانة الدائمة و الشقاء الملازم(٣٣)

(فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ)عقوبات(مَا عَمِلُواْ)و آثارها

(وَحَاقَ)نزل(بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ)

فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب استهزأوا به و سخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذى سخروا منه.

*يَسْخَرون مِنَ الرُّسُلِ إِذَا تَوَعَّدُوهُمْ بِعِقَابِ اللَّهِ فَلِهَذَا يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:{هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [الطُّورِ 14](٣٤)

و لهذا قال:-

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا)

أى:احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله و أن الله لو شاء ما أشركوا

(وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ)

و لا حرموا شيئا من الأنعام التى أحلها كالبحيرة و الوصيلة و الحام و نحوها من دونه

(كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ)

و هذه حجة باطلة فإنها لو كانت حقا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به فعاقبهم أشد العقاب.

فلو كان يحب ذلك منهم لما عذبهم و ليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذى جاءت به الرسل

و إلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم و نهاهم و مكنهم من القيام بما كلفهم و جعل لهم قوة و مشيئة تصدر عنها أفعالهم.

فاحتجاجهم بالقضاء و القدر من أبطل الباطل

هذا و كل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع فجمعوا بين تكذيب الله و تكذيب رسله و تكذيب الأمور العقلية و الحسية

(لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ)

*فَمَشِيئَتُهُ تَعَالَى الشَّرْعِيَّةُ:-مُنْتَفِيَةٌ لِأَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِه

وَ أَمَّا مَشِيئَتُهُ الْكَوْنِيَّةُ:-وَ هِيَ تَمْكِينُهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَدَرًا فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ وَ أَهْلَهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ وَ الْكَفَرَةِ وَ هُوَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَ لَهُ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ وَ حِكْمَةٌ قَاطِعَةٌ.

(فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ)

أى:البين الظاهر الذى يصل إلى القلوب و لا يبقى لأحد على الله حجة فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم و نهيه و احتجوا عليهم بالقدر فليس للرسل من الأمر شىء و إنما حسابهم على الله عز وجل(٣٥)

(وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا)

يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم و أنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا و بعث الله فيها رسولا و كلهم متفقون على دعوة واحدة و دين واحد و هو عبادة الله وحده لا شريك له

(أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ)آمرًا لهم بعبادة الله وطاعته وحده

و تَرْكِ عبادة غيره من الشياطين و الأوثان و الأموات و غير ذلك مما يتخذ من دون الله وليًا

*فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل و عدمها قسمين:-

1-(فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ)فاتبعوا المرسلين علما و عملا

2-(وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ)وجبت(عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ)فاتبع سبيل الغى.

(فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ)بأبدانكم و قلوبكم

(فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ)

فإنكم سترون من ذلك العجائب فلا تجدون مكذبا إلا كان عاقبته الهلاك.

*اسْأَلُوا عَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ مَنْ خَالَفَ الرُّسُلَ وَ كَذَّبَ الْحَقَّ كَيْفَ{دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} [مُحَمَّدٍ: 10]

{وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}[الْمُلْكِ: 18](٣٦)

(إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ) و تبذل جهدك فى ذلك

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺأَنَّ حِرْصَهُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ لَا يَنْفَعُهُمْ إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَرَادَ إِضْلَالَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} [الْمَائِدَةِ: 41] وَ قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ:-

{وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ}[هُودٍ: 34]وَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:-

{إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ}كَمَا قَالَ{مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[الْأَعْرَافِ: 186]وَ قَالَ{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}[يُونُسَ: 96 97]

(فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ)و لو فعل كل سبب لم يهده إلا الله

(وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ)ينصرونهم و يُنْقِذُونَهُمْ من عذاب الله وَثَاقِهِ و يقونهم بأسه.

{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الْأَعْرَافِ: 54] (٣٧)

يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم(وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ)

أى:حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله و أن الله لا يبعث الأموات و لا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابا قال تعالى مكذبا لهم:–

(بَلَىٰ)سيبعثهم و يجمعهم ليوم لا ريب فيه

(وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا)لا يخلفه و لا يغيره

(وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ)قدرة الله على البعث فينكرونه.

*و من جهلهم العظيم إنكارهم للبعث و الجزاء﴿٣٨﴾

ثم ذكر الحكمة فى الجزاء و البعث فقال:–

(لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ)من المسائل الكبار و الصغار فيبين حقائقها و يوضحها.

(وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ)

حين يرون أعمالهم حسرات عليهم و ما نفعتهم آلهتهم التى يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك و حين يرون ما يعبدون حطبا لجهنم و تكور الشمس و القمر و تتناثر النجوم و يتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات و أنهن مفتقرات إلى الله فى جميع الحالات و ليس ذلك على الله بصعب و لا شديد ﴿٣٩﴾

(إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ)فإنه إذا أراد شيئا قال له:–

(كُن فَيَكُونُ)من غير منازعة و لا امتناع بل يكون على طبق ما أراده و شاءه.

* كَمَا قَالَ{وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}[الْقَمَر: 50]

وَ قَالَ:{مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [لُقْمَان: 28]

وَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[النَّحْل: 40]أَيْ:-

أَنْ يَأْمُرَ بِهِ دُفْعَةً واحدة فإذا هو كائن﴿٤٠﴾

يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين(وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ)فى سبيله و ابتغاء مرضاته

(مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ)بالأذية و المحنة من قومهم الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر و الشرك فتركوا الأوطان و الخلان و انتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن

*فذكر لهم ثوابين:–

ثوابا عاجلا فى الدنيا من الرزق الواسع و العيش الهنيء الذى رأوه عيانا بعد ما هاجروا و انتصروا على أعدائهم و افتتحوا البلدان و غنموا منها الغنائم العظيمة فتمولوا و آتاهم الله فى الدنيا حسنة.

(وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ)الذى وعدهم الله على لسان رسوله

(أَكۡبَرُۚ)من أجر الدنيا

جزاء المهاجرين 41-42

كما قال{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)}[التوبة]

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)لو كان لهم علم و يقين بما عند الله من الأجر و الثواب لمن آمن به و هاجر فى سبيله لم يتخلف عن ذلك أحد(٤١)

*ثم ذكر وصف أوليائه فقال:-(ٱلَّذِينَ صَبَرُوا)على:-

1-أوامر الله و عن نواهيه

2-و على أقدار الله المؤلمة

3-و على الأذية فيه و المحن

(وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)يعتمدون عليه في تنفيذ محابّه لا على أنفسهم.

و بذلك تنجح أمورهم و تستقيم أحوالهم فإن الصبر و التوكل ملاك الأمور كلها

فما فات أحدا شيء من الخير إلا:-

1-لعدم صبره و بذل جهده فيما أريد منه

2-أو لعدم توكله و اعتماده على الله(٤٢)

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ:-

حقيقة الرسل و مهمتهم 43-44

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا)لست ببدع من الرسل فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالا كاملين لا نساء.

(نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ)

من الشرائع و الأحكام ما هو من فضله و إحسانه على العبيد من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم

*وَ الْغَرَضُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَخْبَرَتْ أَنَّ الرُّسُلَ الْمَاضِينَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺكَانُوا بَشَرًا كَمَا هُوَ بَشَرٌ كَمَا قَالَ{قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَرًا رَسُولا93 وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولا} [الْإِسْرَاءِ] وَ قَالَ{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأسْوَاقِ}[الْفُرْقَانِ: 20] وَ قَالَ{وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ8ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ}[الْأَنْبِيَاءِ] وَ قَالَ{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ}[الْأَحْقَافِ: 9] وَ قَالَ{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}[الْكَهْفِ: 110]

(فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ)أي:-الكتب السابقة

(إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ)نبأ الأولين و شككتم هل بعث الله رجالا؟

فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر و البينات فعلموها و فهموها فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالا يوحى إليهم من أهل القرى

و عموم هذه الآية فيها:-

1-مدح أهل العلم

2-و أن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل.فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث

3–و في ضمنه تعديل لأهل العلم و تزكية لهم حيث أمر بسؤالهم

4–و أن بذلك يخرج الجاهل من التبعة

5–فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه و تنزيله و أنهم مأمورون بتزكية أنفسهم و الاتصاف بصفات الكمال ﴿٤٣﴾

(بِٱلۡبَيِّنَٰتِ)بِالدَّلَالَاتِ وَ الْحُجَجِ

(وَٱلزُّبُرِۗ)وَ هِيَ الْكُتُبُ_وَ الزُّبُرُ: جَمْعُ زَبُورٍ تَقُولُ الْعَرَبُ: زَبَرْتُ الْكِتَابَ إِذَا كَتَبْتُهُ

وَ قَالَ{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ}[الْقَمَرِ: 52]وَ قَالَ{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ}[الْأَنْبِيَاءِ: 105]

*و أفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم فإنهم أهل الذكر على الحقيقة و أولى من غيرهم بهذا الاسم

و لهذا قال تعالى:–

(وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ)القرآن الذى فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم و دنياهم الظاهرة و الباطنة

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ)و هذا شامل لتبيين ألفاظه و تبيين معانيه

(وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ)فيه فيستخرجون من كنوزه و علومه بحسب استعدادهم و إقبالهم عليه.

يَنْظُرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فَيَهْتَدُونَ فَيَفُوزُونَ بِالنَّجَاةِ فِي الدارين ﴿٤٤﴾

تهديد الكافرين 45-48

(أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ)الكفار المدبِّرون للمكايد

(أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ)كما فعل بقارون

*هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر و التكذيب و أنواع المعاصى من أن يأخذهم العذاب من فوقهم

أو من أسفل منهم بالخسف و غيره

(أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ)و إما أن يأخذهم بالعذاب على غرَّة و هم لا يشعرون

*كَمَا قَال{ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ16أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا

فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}[الْمُلْكِ]﴿٤٥﴾

(أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ)إما(فِي)حال

(تَقَلُّبِهِمۡ)فِي الْمَعَايِشِ وَ اشْتِغَالِهِمْ بِهَا مِنْ أَسْفَارٍ وَ نَحْوِهَا مِنَ الْأَشْغَالِ الْمُلْهِيَةِ و عدم خطور العذاب ببالهم

*وَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَ الضَّحَّاكُ:-{فِي تَقَلُّبِهِمْ}فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ

كَمَا قَالَ{أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ97أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ}[الْأَعْرَافِ]

(فَمَا)فليسوا(هُم بِمُعۡجِزِينَ)لله فى حالة من هذه الأحوال بل هم تحت قبضته و نواصيهم بيده ﴿٤٦﴾

(أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ)و إما فى حال تخوفهم من العذاب

(فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ)

و لكنه رءوف رحيم لا يعاجل العاصين بالعقوبة بل يمهلهم و يعافيهم و يرزقهم و هم يؤذونه و يؤذون أولياءه و مع هذا يفتح لهم أبواب التوبة و يدعوهم إلى الإقلاع من السيئات التى تضرهم و يعدهم بذلك أفضل الكرامات و مغفرة ما صدر منهم من الذنوب

فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة فى جميع اللحظات و معاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات و ليعلم أن الله يمهل و لا يهمل و أنه إذا أخذ العاصى أخذه أخذ عزيز مقتدر فليتب إليه و ليرجع في جميع أموره إليه فإنه رءوف رحيم.

فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة و بره العميم و سلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم ألا و هى تقواه و العمل بما يحبه و يرضاه.

*البخارى 4686-عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي(ليمهل)لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ(لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه)»قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ:-

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} 47

(أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ)أى: الشاكون فى توحيد ربهم و عظمته و كماله

(إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ)أى:–إلى جميع مخلوقاته

خضوع كل شىء لله 49-50

(يَتَفَيَّؤُاْ)تميل(ظِلَٰلُهُۥ)

(عَنِ ٱلۡيَمِينِ)و عن(وَٱلشَّمَآئِلِ)تبعًا لحركة الشمس نهارًا والقمر ليلا

(سُجَّدٗا)كلها ساجدة(لِّلَّهِ)خاضعة لعظمته و جلاله

(وَهُمۡ دَٰخِرُونَ)ذليلون تحت التسخير و التدبير و القهر ما منهم أحد إلا و ناصيته بيد الله و تدبيره عنده 48

(وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ)من الحيوانات الناطقة و الصامتة

*كَمَا قَالَ{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [الرَّعْدِ: 15]

(وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ)الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم و شرفهم و كثرة عبادتهم

و لهذا قال:–(وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ)عن عبادته على كثرتهم و عظمة أخلاقهم و قوتهم كما قال تعالى:–

{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا}

[النساء: 172]

(يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ)لما مدحهم بكثرة الطاعة و الخضوع لله مدحهم بالخوف من الله الذى هو فوقهم بـ–

الذات و القهر و كمال الأوصاف فهم أذلاء تحت قهره.

(وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ)أى:–مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره طوعا و اختيارا

و سجود المخلوقات لله تعالى قسمان:–

1–سجود اضطرار:– و دلالة على ما له من صفات الكمال

و هذا عام لكل مخلوق من مؤمن و كافر و بر و فاجر و حيوان ناطق و غيره

2–و سجود اختيار:– يختص بأوليائه و عباده المؤمنين من الملائكة و غيرهم من المخلوقات 50

(وَقَالَ ٱللَّهُ)يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له و يستدل على ذلك بانفراده بالنعم و الوحدانية فقال:–

الرد على المشركين فى فساد عقيدتهم 51-64

(لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ)أى: تجعلون له شريكا فى إلهيته

و هو (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ)متوحد فى الأوصاف العظيمة متفرد بالأفعال كلها.

فكما أنه الواحد فى ذاته و أسمائه و نعوته و أفعاله فلتوحِّدوه فى عبادته

و لهذا قال:(فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ)أى:خافونى و امتثلوا أمرى و اجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بى شيئا من المخلوقات

فإنها كلها لله تعالى مملوكة﴿٥١﴾

(وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ)دائما

*أى:الدين و العبادة و الذل فى جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوه لله و ينصبغوا بعبوديته.

(أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ)

من أهل الأرض أو أهل السماوات فإنهم لا يملكون لكم ضرا و لا نفعا و الله المنفرد بالعطاء و الإحسان﴿٥٢﴾

(وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ)ظاهرة و باطنة

(فَمِنَ ٱللَّهِۖ)لا أحد يشركه فيها

(ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ)من فقر و مرض و شدة

(فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ)تضجون بالدعاء و التضرع لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو فالذى انفرد بإعطائكم ما

تحبون و صرف ما تكرهون هو الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده.

*لِعِلْمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ فَإِنَّكُمْ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ تَلْجَئُونَ إِلَيْهِ وَ تَسْأَلُونَهُ وَ تُلِحُّونَ فِي الرَّغْبَةِ مُسْتَغِيثِينَ بِهِ لِقَوله :-

{وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}[الإسراء: 67]﴿٥٣﴾

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ)

و لكن كثيرا من الناس يظلمون أنفسهم و يجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة

فصاروا فى حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة و لهذا قال:–﴿٥٤﴾

لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾

(لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ)أعطيناهم حيث نجيناهم من الشدة و خلصناهم من المشقة

(فَتَمَتَّعُواْ)في دنياكم قليلا(فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ)عاقبة كفركم﴿٥٥﴾

(وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ)

يخبر تعالى عن جهل المشركين و ظلمهم و افترائهم على الله الكذب و أنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم و لا تنفع و لا تضر– نصيبا مما رزقهم الله و أنعم به عليهم فاستعانوا برزقه على الشرك به و تقربوا به إلى أصنام منحوتة كما قال:-

{هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ}[الأنعام: 136]

(تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ)تختلقونه من الكذب على الله.

{قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ59 وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[يونس]

فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة﴿٥٦﴾

(وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ)حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين إنهم بنات الله

(وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ)أي لأنفسهم الذكور حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة كَمَا قَالَ:-

{أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى21 تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى}[النَّجْم]﴿٥٧﴾

(وَإِذَا بُشِّرَ)و إذا جاء مَن يخبر (أَحَدُهُم) (بِـــ)ولادة(بِٱلۡأُنثَىٰ)اسودَّ وجهه

(ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا)كئيبا من الغم الذى أصابه

(وَهُوَ كَظِيمٞ)كاظم على الحزن و الأسف إذا بشِّر بأنثى سَاكِتٌ مِنْ شِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ ﴿٥٨﴾

(يَتَوَٰرَىٰ)يستخفى(مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ)كراهة أن يلقاهم متلبسًا بما ساءه من الحزن و العار

*و حتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه و يتوارى منهم من سوء ما بشر به ثم يعمل فكره و رأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التى بشّر بها

(أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ)يتركها من غير قتل على إهانة و ذل

(يبقيها مهانة لا يعتنى بها و لا يورثها –ليس على هون :أى على مهل)

(أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ)يدفنها و هى حية و هو الوأد الذى ذم الله به المشركين

(أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ)إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه

ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أردأ القسمين و هو الإناث اللاتى يأنفون بأنفسهم عنها و يكرهونها فكيف ينسبونها لله تعالى؟ فبئس الحكم حكمهم ﴿٥٩﴾

و لما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون قال تعالى:–

(لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ)أى المثل الناقص و العيب التام النَّقْصُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ

(وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ)و هو كل صفة كمال و كل كمال فى الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه

*و له المثل الأعلى في قلوب أوليائه و هو التعظيم و الإجلال و المحبة و الإنابة و المعرفة

(وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ)الذى قهر جميع الأشياء و انقادت له المخلوقات بأسرها

(ٱلۡحَكِيمُ)الذى يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر و لا يفعل إلا ما يحمد عليه و يثنى على كماله فيه ﴿٦٠﴾

*لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه ذكر كمال حلمه و صبره فقال:–

(وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم)من غير زيادة و لا نقص

(مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ)أى:–لأهلك المباشرين للمعصية و غيرهم من أنواع الدواب و الحيوانات

فإن شؤم المعاصى يهلك به الحرث و النسل.

(وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ)عن تعجيل العقوبة عليهم

(إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ)و هو يوم القيامة و لكن يبقيهم إلى وقت محدد هو نهاية آجالهم

(فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ)

فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه﴿٦١﴾

يخبر تعالى أن المشركين(وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ)من:-

1-البنات

2-و من الأوصاف القبيحة و هو الشرك بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التى هى عبيد لله

فكما أنهم يكرهون و لا يرضون أن يكون عبيدهم-و هم مخلوقون من جنسهم-شركاء لهم فيما رزقهم الله

فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟

(وَ) هم مع هذه الإساءة العظيمة

(وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ)الحالة الحسنة فى الدنيا و الآخرة

*إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى فِي الدُّنْيَا وَ إِنْ كَانَ ثمَّ مَعَادٍ فَفِيهِ أَيْضًا لَهُمُ الْحُسْنَى

وَ إِخْبَارٌ عَنْ قِيلِ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نزعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ9 وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [هُودٍ]

وَ كَقَوْلِهِ{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [فُصِّلَتْ: 50]

وَ قَوْلُهُ: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأوتَيَنَّ مَالا وَوَلَدًا77 أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} [مَرْيَمَ]

وَ قَالَ إِخْبَارًا عَنْ أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: أَنَّهُ{وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا35 وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}[الْكَهْفِ]

*رد عليهم بقوله:-(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ)مَنْسِيُّونَ فِيهَا مُضَيَّعُونَ_مُعَجَّلُونَ إِلَى النَّارِ

وَ هَذَا كَقَوْلِهِ{فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا}[الْأَعْرَافِ: 51] مقدمون إليها ماكثون فيها غير خارجين منها أبدا

﴿٦٢﴾

*بيَّن تعالى لرسوله ﷺأنه ليس هو أول رسول كُذِّب فقال تعالى:-

(تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ)رسلا يدعونهم إلى التوحيد

(فَزَيَّنَ)فحسَّن(لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ)

(أَعۡمَٰلَهُمۡ)ما عملوه من الكفر و التكذيب و عبادة غير الله

*فكذبوا الرسل و زعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجى من كل مكروه و أن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك فلما زين لهم الشيطان أعمالهم صار وليهم فى الدنيا فأطاعوه و اتبعوه و تولوه.

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

(فَهُوَ وَلِيُّهُمُ)متولٍّ إغواءهم(ٱلۡيَوۡمَ)فى الدنيا

(وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ)

فى الآخرة حيث توَّلَوْا عن ولاية الرحمن و رضوا بولاية الشيطان فاستحقوا لذلك عذاب الهوان﴿٦٣﴾

(وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ)القرآن-أيها الرسول-

(إِلَّا لِتُبَيِّنَ)لتوضح(لَهُمُ)أى:- للناس

(ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ)من الدين و الأحكام لتقوم الحجة عليهم ببيانك الذى لا يترك الباطل مسلكا إلى النفوس

(وَهُدٗى)و لكون القرآن هدى لا يترك مجالاً للحيرة

(وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ)و رحمة للمؤمنين فى اتباعهم الهدى و مجانبتهم الضلال﴿٦٤﴾

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾

(وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً)لأنه المنعم بإنزال المطر و إنبات جميع أصناف النبات و على أنه على كل شيء قدير

كثرة نعم الله و كفران المشركين 65-83

(فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ)

و أن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات و أن الذى نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة و جود عظيم.

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ)عن الله مواعظه و تذكيره

فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده ﴿٦٥﴾

(وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ)التي سخرها الله لمنافعكم وَ هِيَ:-الْإِبِلُ وَ الْبَقَرُ وَ الْغَنَمُ

(لَعِبۡرَةٗۖ)تستدلون بها على كمال قدرة الله و سعة إحسانه

(نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ)حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث(هو ما فى الكَرِش)و الدم

*يَتَخَلَّصُ الدَّمُ بَيَاضُهُ وَطَعْمُهُ وَ حَلَاوَتُهُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ فِي بَاطِنِ الْحَيَوَانِ فَيَسْرِي كُلٌّ إِلَى مَوْطِنِهِ إِذَا نَضِجَ الْغِذَاءُ فِي مَعِدَتِه تَصَرَّفَ مِنْهُ دَمٌ إِلَى الْعُرُوقِ وَ لَبَنٌ إِلَى الضَّرْعِ وَ بَوْلٌ إِلَى الْمَثَانَةِ وَ رَوْثٌ إِلَى الْمَخْرَجِ وَ كُلٌّ مِنْهَا لَا يَشُوبُ الْآخَرَ وَ لَا يُمَازِجُهُ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْهُ وَ لَا يَتَغَيَّرُ بِهِ.

*فأخرج من بين ذلك(لَّبَنًا خَالِصٗا)من الكدر

(سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ)لَا يَغَصُّ بِهِ أَحَدٌ_للذته

و لأنه يسقى و يغذى فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.

فأى شيء فى الطبيعة يقلب العلف الذى تأكله البهيمة و الشراب الذى تشربه من الماء العذب و الملح لبنا خالصا سائغا للشاربين؟﴿٦٦﴾

(وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ)و جعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل و الأعناب

(تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا)و من السَكَرِ الذى كان حلالا قبل ذلك ثم إن الله نسخ حلَّ المسكرات و أعاض عنها بالطيبات من الأنبذة و أنواع الأشربة اللذيذة المباحة.

(وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ)منافع للعباد و مصالح من أنواع الرزق الحسن الذى يأكله العباد :–

طريًّا و نضيجا و حاضرا و مدخرا و طعاما و شرابا يتخذ من عصيرها و نبيذها

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ)نَاسَبَ ذِكْرُ الْعَقْلِ هَاهُنَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ مَا فِي الْإِنْسَانِ
وَ لِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَشْرِبَةَ الْمُسْكِرَةَ صِيَانَةً لِعُقُولِهَا

(يَعۡقِلُونَ)عن الله كمال اقتداره حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب فصارت ثمرة لذيذة و فاكهة طيبة

و على شمول رحمته حيث عم بها عباده و يسرها لهم وأنه الإله المعبود وحده حيث إنه المنفرد بذلك﴿٦٧﴾

(وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ)الْمُرَادُ بِالْوَحْيِ هَاهُنَا: الْإِلْهَامُ وَ الْهِدَايَةُ وَ الْإِرْشَادُ إِلَى النَّحْلِ

(أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا)أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا تَأْوِي إِلَيْهَا

(وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ)و فيما يبنى الناس من البيوت و السُّقُف.
*ثُمَّ هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ فِي تَسْدِيسِهَا وَ رَصِّهَا بِحَيْثُ لَا يَكُونُ بَيْنَهَا خلَل.

*فى خلق هذه النحلة الصغيرة التى هداها الله هذه الهداية العجيبة و يسر لها المراعى﴿٦٨﴾

(ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ)ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها و هدايته لها
*ثُمَّ أَذِنَ لَهَا تَعَالَى إِذْنًا قَدَرِيًّا تَسْخِيرِيًّا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

(فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ)وَ أَنْ تَسْلُكَ الطُّرُقَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهَا مُذَلَّلَةً أَيْ:-
سَهْلَةً عَلَيْهَا حَيْثُ شَاءَتْ فِي هَذَا الْجَوِّ الْعَظِيمِ وَ الْبَرَارِي الشَّاسِعَةِ وَ الْأَوْدِيَةِ وَ الْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ ثُمَّ تَعُودُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَى مَوْضِعِهَا وَ بَيْتِهَا لَا تَحِيدُ عَنْهُ يُمْنَةً وَ لَا يُسْرَةً بَلْ إِلَى بَيْتِهَا وَ مَا لَهَا فِيهِ مِنْ فِرَاخٍ وَ عَسَلٍ فَتَبْنِي الشَّمْعَ مِنْ أَجْنِحَتِهَا وَ تَقِيءُ الْعَسَلَ مِنْ فِيهَا وَ تَبِيضُ الْفِرَاخَ مِنْ دُبُرِهَا ثُمَّ تُصْبِحُ إِلَى مَرَاعِيهَا.
(ذُلُلٗاۚ)مُطِيعَةً. فَجَعَلَاهُ حَالًا مِنَ السَّالِكَةِ.وَ هُوَ كَقَوْلِ اللَّهِ{وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [يس: 72]
قَالَ: أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَنْقُلُونَ النَّحْلَ مِنْ بُيُوتِهِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَ هُوَ يَصْحَبُهُمْ.

(يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ)ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ

(مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ)مَا بَيْنَ أَبْيَضَ وَ أَصْفَرَ وَ أَحْمَرَ وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْوَانِ الْحَسَنَةِ بحسب اختلاف أرضها و مراعيها

(فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ)من أمراض عديدة.فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى و تمام لطفه بعباده و أنه الذى لا ينبغى أن يحب غيره و يدعى سواه.

*البخارى5684-عَنْ أَبِي سَعِيدٍﷺ:أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺفَقَالَ:أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ(من ألم أصابه بسبب إسهال حصل له)فَقَالَ:- «اسْقِهِ عَسَلًا»

ثُمَّ أَتَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلًا» ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ:-«اسْقِهِ عَسَلًا»ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ؟

فَقَالَ:-«صَدَقَ اللَّهُ(إذ قال{يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس}

وَ كَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ(لم يصلح للشفاء بعد بهذه الكمية التى سقيته إياها)اسْقِهِ عَسَلًا» فَسَقَاهُ فَبَرَأَ(شفى من المرض)

*البخارى5683 - عن جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:-

" إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - أَوْ: يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ-خَيْرٌ فَفِي:-

1-شَرْطَةِ مِحْجَمٍ 2-أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ

3-أَوْ لَذْعَةٍ(إصابة خفيفة) بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ(متحقق منها أنها تكون سببا لزوال الداء لا على سبيل التخمين والتجربة)وَ مَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ "

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ)إِنَّ فِي إِلْهَامِ اللَّهِ لِهَذِهِ الدَّوَابِّ الضَّعِيفَةِ الْخِلْقَةِ إِلَى السُّلُوكِ فِي هَذِهِ الْمَهَامَةِ وَ الِاجْتِنَاءِ مِنْ سَائِرِ الثِّمَارِ ثُمَّ جَمْعِهَا للشمع و العسل و هو من أطيب الْأَشْيَاءِ

(لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ)فِي عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَ مُقَدِّرِهَا وَ مُسَخِّرِهَا وَ مُيَسِّرِهَا فَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْكَرِيمُ الرَّحِيمُ﴿٦٩﴾

*يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد و نقلهم فى الخلقة طورا بعد طور ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم و منهم من يعمره حتى

(يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ)أخس(ٱلۡعُمُرِ)الذى يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة و الباطنة حتى العقل الذى هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه

(لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ)حتى إنه ينسى ما كان يعلمه و يصير عقله كعقل الطفل

(إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ)قد أحاط علمه و قدرته بجميع الأشياء و من ذلك ما ينقل به الآدمى من أطوار الخلقة خلقا بعد خلق كما قال{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: 54]

*البخارى 4707 - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺكَانَ يَدْعُو:-

«أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ وَ الكَسَلِ وَ أَرْذَلِ العُمُرِوَ عَذَابِ القَبْرِوَ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَ فِتْنَةِ المَحْيَا وَ المَمَاتِ»﴿٧٠﴾

و هذا من أدلة توحيده و قبح الشرك به يقول تعالى:كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون إلا أنه تعالى

(وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ)

فجعل منكم أحرارا لهم مال و ثروة و منكم أرقاء لهم لا يملكون شيئا من الدنيا

(فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟)فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا

(بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ)بِجَاعِلي مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ الأموال و غيرها شركة بينهم و بين مماليكهم

(فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ)و يرون هذا من الأمور الممتنعة

فكذلك من أشركتم بها مع الله فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟!

هل هذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله؟!!

*يُبَيِّنُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ جَهْلَهُمْ وَ كُفْرَهُمْ فِيمَا زَعَمُوهُ لِلَّهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ وَ هُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا عَبِيدٌ لَهُ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَاتِهِمْ فِي حَجِّهِمْ:-"لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَ مَا مَلَكَ".

فَقَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ:-إِنَّكُمْ لَا تَرْضَوْنَ أَنْ تُسَاوُوا عَبِيدَكُمْ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَكَيْفَ يَرْضَى هُوَ تَعَالَى بِمُسَاوَاةِ عَبِيدِهِ لَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَ التَّعْظِيمِ

كَمَا قَالَ{ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ}[الروم: 28]

*وَ قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ فَهَلْ مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ شَارَكَ مَمْلُوكَهُ فِي زَوْجَتِهِ وَ فِي فِرَاشِهِ فَتَعْدِلُونَ بِاللَّهِ خَلْقَهُ وَ عِبَادَهُ؟فَإِنْ لَمْ تَرْضَ لِنَفْسِكَ هَذَا فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُنَزَّهَ مِنْكَ.

و لهذا قال:(أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ)فلو أقروا بالنعمة و نسبوها إلى من أولاها لما أشركوا به أحدا.

*أَنَّهُمْ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَجَحَدُوا نَعْمَتَهُ وَ أَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ﴿٧١﴾

(وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ)يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده حيث جعل لهم

(أَزْوَٰجًا)ليسكنوا إليها(وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً)أولادا تقرُّ بهم أعينهم و يخدمونهم

و يقضون حوائجهم و ينتفعون بهم من وجوه كثيرة

(وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ)

و رزقهم من الطيبات من جميع المآكل و المشارب و النعم الظاهرة التى لا يقدر العباد أن يحصوها.

(أَفَبِٱلْبَٰطِلِ)من ألوهية شركائهم(يُؤْمِنُونَ)

*أى:أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئا مذكورا ثم أوجده الله و ليس له من وجوده سوى العدم فلا تخلق و لا ترزق و لا تدبر من الأمر شيئا

و هذا عام لكل ما عبد من دون الله فإنها باطلة فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟!!

(وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)يجحدونها و يستعينون بها على معاصى الله و الكفر به هل هذا إلا من أظلم الظلم و أفجر الفجور و أسفه السفه؟ يَسْتُرُونَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَ يُضِيفُونَهَا إِلَى غَيْرِهِ﴿٧٢﴾

إشارات إعجازية فى تكوين لبن الأنعام الرابط

في قوله (و إن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث و دماً لبناً خالصاً سائغاً للشاربين)[النحل66]
من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمى فى القرآن و السنة بتركيا 1432هـ - 2011م
د/حامد عطيه محمد أستاذ بكلية الطب البيطرى- جامعة الزقازيق- مصر
لقد أدرك البشر منذ زمن بعيد العلاقة بين إدرار اللبن وما يتناوله الحيوان من غذاء وأن الحيوان يهلك إذا ما حرم من الغذاء ولكنهم لم يعرفوا العملية التي يتم بها تحول هذا الغذاء إلى لبن أو لحم أو عظم أو أي مادة أخرى .وجاء العلم الحديث ليبين لنا مراحل تكوين اللبن خالصاً سائغاً للشاربين فيكشف لنا من آيات الله اللطيف الخبير ما جاء مطابقاً لما أخبرنا به القرآن عن أسرار تكون اللبن فى بطون الأنعام ويظهر عظمة إنعام الخالق المنعم على عباده.

مراحل تكون اللبن من بين الفرث و الدم:

يتم تكوين اللبن في الأنعام بالتنسيق المحكم و التدرج الدقيق بين الجهاز الهضمى والجهاز الدوري والجهاز التناسلي عن طريق الغدد اللبنية في الضروع وغيرها من الأجهزة حيث جعل الله لكل جهاز وظيفة وأعمالاً خاصة يقوم بها ليتكون- فى نهاية المطاف-اللبن الخالص السائغ للشاربين.
و يمكن أن نجمل مراحل تكون اللبن كالآتي :-
-1-عملية الهضم فى الكرش(تحول العلف الى فرث):-
-2-عملية استخلاص الأحماض الدهنية من بين الفرث -
-3-عملية استخلاص من بين الدم -
يتم تكوين اللبن بواسطة الغدد الثديية أو الضرع عن طريق عمليتين هامتين:-
أ- المرحلة الأولى:- ترشيح بعض مكونات اللبن من مجرى الدم
ب- المرحلة الثانية:-تركيب مكونات اللبن الأخرى بواسطة التمثيل الغذائى الخلوى

التركيب التشريحى للضرع:

صمم الخالق ضروع الأنعام و ضروع غيرها من الحيوانات الثديية بحكمه بالغة كى يمكنها من إنتاج اللبن لإرضاع صغارها واستفادة الإنسان منه.
فضروع الأنعام رباعية التركيب و تتدلى أربطه خاصة من الحوض لرفعها وحمايتها مما تتعرض له من صدمات خاصة عندما تمتلئ باللبن و يثقل وزنها.
استطاع العلماء حديثا معرفة كيف يتكون اللبن فى بطون الأنعام بعد أن اكتشاف أسرار الجهاز الهضمى ومعرفة وظائف أعضائه
وبعد اكتشاف الدورة الدموية وعلاقتها بعملية امتصاص المواد الغذائية من الأمعاء ودخولها في الدم وقد استغرق ذلك فترة من الزمن لتطوير الأجهزة و اكتشاف الأسرار استمرت قرابة خمسة قرون .
يتم تكوين اللبن فى الأنعام بالتنسيق المحكم و التدرج الدقيق بين الجهاز الهضمى و الجهاز الدورى والجهاز التناسلى عن طريق الغدد اللبنية فى الضروع وغيرها من الأجهزة حيث جعل الله لكل جهاز وظيفة وأعمالاً خاصة يقوم بها ليتكون-فى نهاية المطاف-اللبن الخالص السائغ للشاربين.
*يكفى أن نعلم أنه من أجل إنتاج لتر واحد من الحليب فى ثدى الحيوان يجب أنْ يمرَّ ما يقارب خمسمائة لتر من الدم خلال هذا العضو كى يتم امتصاص المواد اللازمة من البروتينيات و الكربوهيدرات والدهون و العناصر و الفيتامينات و الهرمونات اللازمة لتكوين ذلك اللتر من اللبن.

استطاع العلماء حديثا معرفة كيف يتكون اللبن في بطون الأنعام بعد أن اكتشاف أسرار الجهاز الهضمي ومعرفة وظائف أعضائه وبعد اكتشاف الدورة الدموية وعلاقتها بعملية امتصاص المواد الغذائية من الأمعاء ودخولها في الدم وقد استغرق ذلك فترة من الزمن لتطوير الأجهزة واكتشاف الأسرار استمرت قرابة خمسة قرون.

وجاء العلم الحديث ليبين لنا مراحل تكوين اللبن خالصاً سائغاً للشاربين فيكشف لنا من آيات الله اللطيف الخبير ما جاء مطابقاً لما أخبرنا به القرآن عن أسرار تكون اللبن فى بطون الأنعام ويظهر عظمة إنعام الخالق المنعم على عباده.

علينا أن نتذكر أنّ كلّ ما كان يُعْرَف عن النحل في عصر الرسالة وما قبله لا يخرج عن معلومات قليلة مستمدة من النحالين والأطباء، هذه المعلومات تتناول تربية النحل في خلايا محلية، وكيفية انتشارها في الجبال والبراري، وعسلها وأثره في الدواء والغذاء، وشمعها الذي غلب استخدامه في الإضاءة، وإبرها التي تدافع بها عن نفسها وتلسع بها من يقترب من خليتها.

دام الحال هكذا حتى القرن العشرين حين تمكن العالمان C. A. Rosch و Karl Von Frisch من الوصول إلى معرفة دقائق حياة النحل من خلال دراستهما ومراقباتها التي طُبقت على طوائف نحل في خلايا ذات واجهات زجاجية، بعد وضع علامات مائزة على عدد منها فور خروجها من نخاريب الحضانة.

لاحظ هذان العالمان أن هناك فرقاً أساسياً بين الإنسان والنحل في طريقة تقسيم العمل، ذلك أن الإنسان عندما يتخصص بعمل ما فإنه يظل عليه حتى آخر العمر، بينما تغيّر النحلة نشاطها كلما تقدمت في السن طبقاً لخطة ثابتة، تمر من خلالها على جميع أعمال الطائفة، تبدأ حياتها عاملة نظافة وتنتهي جامعة للغذاء.

كما لاحظا أن حياة النحلة في الأحوال الاعتيادية في موسم وضع البيض وفيض العسل في الربيع والصيف تشتمل على مرحلتين، الأولى: يقوم فيها النحل بأعمال منزلية داخل الخلية أطلقا عليها (المرحلة المنزلية)، والثانية: تزاول أعمالاً خارج الخلية في الحقول أطلقا عليها (المرحلة الحقلية).

ولكي نبين أوجه الإعجاز في الآية 68 من سورة النحل، علينا أن نقف أولا على الحقائق العلمية الآتية:

- **مملكة النحل**
- **مكونات النحلة**
- **كيف يبنى النحل بيته**

1. مملكة النحل

يعيش نحل العسل معيشة اجتماعية راقية منظمة ومنسقة رقياً وتنظيماً وتنسيقاً يفوق الوصف، يعيش في مجتمعات يسمى الواحد منها (خلية . عش . بيت) والقرآن يسميه بيتاً لقوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، يسكن في هذا البيت ألوف من النحل ينتمون لنفس نوع جماعة النحل (أنظر صورة لبيوت النحل)، غير أن أشكالها مختلفة وكذلك مهامها، وهناك أنواع من مجموعات النحل (النحل الاجتماعي . النحل الانفرادي . النحل الطفيلي):

أ. النحل الاجتماعي

أشهر أنواع النحل الاجتماعي (نحل العسل . النحل الزنان . النحل الطنان) يعيش في أعشاش جماعية، ويوجد في كل عش جماعة أو مجتمع قد يصل عددها إلى خمسين ألف نحلة، وحين تبيض الملكة فقد يصل عدد بيضها إلى ألفي بيضة/ يوميا، (أكبر عدد من أعشاش نحل العسل هو **104** آلاف عش، عثر عليها في مساحة **1187** م^2)

ب. النحل الانفرادي

هذا النوع لا يعيش في مجتمعات أو تجمعات، وإنما يعيش منعزلا عن بعضه، وتحفر النحلة حفرة في الأرض أو في جزع شجرة لتكون عشا لها، وحتى إذا تجاورت تلك الأعشاش فلا يوجد بينها أي شكل من أشكال التنظيم الجماعي كما في النحل الاجتماعي. ويفضل هذا النوع الأرض الجرداء الجافة التي لا تتعرض للشمس كثيرا، وقد تنتشر أعشاشه تحت سطح الأرض في مساحة كبيرة، (عثر على أعشاش لهذا النوع تقدر بـ12 مليون عش، منتشرة على مساحة 360 ألف م^2، وتمتد بطول 7 كم على ضفة نهر باريش بالاتحاد السوفيتي القديم).

ج. النحل الطفيلي

هو نوع من النحل يتطفل على مجموعات من النحل الأخرى، حيث يستولي على بيض ويرقات أنواع النحل الأخرى، ثم يبيض ويضع بيضه في خلية نوع آخر من النحل.

د. أشهر أنواع النحل في العالم

(1) **النحل الأصفر**: توجد سلالاته في مصر وسورية وتركيا وقبرص وإيطاليا.(النحلة الإيطالية بطنها ذهبي اللون، وشعر الجسم أشقر، تنتج أفرادا بكثرة وقادرة على مواجهة الظروف الجوية السيئة).

(2) **النحل الأسود**: توجد سلالاته في فرنسا وسويسرا وألمانيا وشمال غرب أوروبا وشمال أفريقيا.

(3) **النحل السنجابي**: يوجد منه النحل القوقازي والكارونيلي (النحل القوقازي أصلها منطقة القوقاز جنوب روسيا لونها برونزي فاتح، تدافع عن خليتها بجسارة– أما النحل الكارونيلي فهو موجود في يوغسلافيا، بطنها رمادي فيه ثلاث شدفات بيض، شعرها أشقر، وديعة جدا يمكن التعامل معها بدون قناع أو قفاز).

إن النحل كائن عجيب لقد اكتشف العالم "فون فريش" أن النحل يتفاهم عن طريق الرقص وأن له لغة وقد نال جائزة نوبل تقديراً لاكتشافه المثير، إن شغالات نحل العسل هي التي تقوم بجمع الرحيق وحبوب اللقاح، ولكي تخبر بقية الشغالات عن مكان الزهور التي زارتها وكميتها ونوعها, فإنها تعبر عن ذلك بالرقص في الخلية، فإذا رقصت النحلة في خط مستقيم فمعنى ذلك أن الزهور في اتجاه الشمس, وأما إذا رقصت ناحية الاتجاه المعاكس فمعنى ذلك أن الزهور عكس اتجاه الشمس, أما إذا كان اتجاه الرقص ناحية اليمين فمعنى ذلك أن الزهور تقع بزاوية 90 درجة من الجهة اليمنى, وإذا رقصت بزاوية ميل 45 درجة فهذا يعني أن زاوية الميل للزهور عن الشمس تساوي 45 درجة.

والعجيب أن النحل يراعي حركة الشمس عند حساب الاتجاه، فمن المعروف أن الشمس تغير اتجاهها بمقدار درجة ناحية الغرب كل أربع دقائق, والنحلة تراعي هذا الانحراف الزاوي المتغير بالنسبة لحركة الشمس أولا بأول عند تحديدها اتجاه الزهور، والنحلة القائمة بمهمة التبليغ (النحلة المخبرة) تُعْبِر عن المسافة بزمن الرقص, وتعبر عن كم الزهور بتسارع اهتزازات جسمها أو تقليله، ولتحديد نوع الزهور فإن

النحلة تطبع رائحة الزهور في فمها حتى يتعرف عليها بقية الأفراد عند رجوعها إلى الخلية

وتتكون كل خلية من:

(1) الملكة: هي الأنثى الكاملة التكوين، وهى الوحيدة القادرة على إنتاج البيض، جسمها أضخم من جسم الشغالة، وأطول من الذكر، أجنحتها قصيرة وصدرها عريض، عيناها متباعدتان وقرناها منحنيان، خرطومها قصير وأرجلها الخلفية ليست كأرجل الشغالة، وبعد خروج العذراء من الشرنقة تتغذى لبضعة أيام على العسل وتعاملها الشغالات بقسوة لتدفعها إلى الخروج للتزاوج، تقف العذراء على مدخل الخلية وتصدر أزيزا لا يكاد يسمعه النحال على بعد خطوات بينما تسمعه الذكور على بعد عدة كيلومترات، فتأتي سريعاً، وعندما يجتمع عدد كاف تطير العذراء في رحلة تسمى الزفاف الملكي وتندفع الذكور وراءها ويتم التلقيح في الجو وتعود العذراء إلى الخلية وقد أصبحت ملكة.

(2) الذكر: جسمه ممتلئ يكسوه وبر، خرطومه قصير وأجنحته لا يزيد طولها عن طول الجسم، قرون استشعاره مستقيمة، عيناه تقعان في قمة رأسه مهمته تلقيح الملكة ويموت بعد عملية التلقيح. **فمصير الذكور هو الموت عند باب الخلية بعد انتهاء مهمته فليس للذكور أي عمل مفيد، كما** أنها لا تملك أداة لسع لتدافع عن الخلية أو حتى عن نفسها. إن دور الذكور يعد إذن ثانويا في عالم النحل.

(3) الشغالة: الشغالات تعد إناثا **عقيمة ضامرة الجهاز التناسلي، وهي تقوم بكل الأعمال اللازمة فهي** ترعى الملكة وتلعقها وتنظفها وتحميها وتغذيها بالغذاء الملكي من غدد تفرزها من رؤوسها، **كما تعمل على حراسة الخلية وقتال أعداء النحل، كما تعمل على جمع الماء والرحيق وحبوب اللقاح وتقوم ببناء الأقراص الشمعية التي تربي فيها الصغار، وتخزن فيها العسل وحبوب اللقاح، كما ترعى الحضنة وتغذيها وتلطف جو الخلية بالتهوية بالأجنحة... إلخ، فالشغالة إذا هي محور** عمل الخلية.

تستطيع النحلة أن تقرأ المغنطيسية الأرضية (وتحدد الشمال والجنوب للأرض)، يوجد كائنات أخرى تستطيع ذلك مثل الدلافين والطيور, إلا أن النحل يستطيع تحديد المغناطيسية الأرضية بكل دقة أكثر من أي كائن آخر على الإطلاق، وذلل الله لها ذلك لكي تستطيع أن تخرج وتعود إلى بيتها دون أن تضل. ولكن كيف تفعل ذلك وما الذي يساعدها؟، يوجد على بطن النحلة ملايين البلورات المغناطيسية توجد داخل خلايا يطلق عليها (تروفوسيت) تتصل بالجهاز العصبي في مخ النحلة، وهي التي تحدد الاتجاهات المغناطيسية للأرض, لكي تعرف النحلة طريقها بكل سهولة.

2. مكونات النحلة

أ. مكونات الجسم

النحلة حشرة لها رأس وصدر وبطن، وهى من رتبة الحشرات ذوات الأجنحة الغشائية، ورأسها يحمل قرنين في الأمام وعينين كبيرتين وفماً، وأما الصدر فهو المنطقة التي تلي الرأس، وهو ء

إلى ثلاثة أجزاء متوالية ملتحمة مع بعضها، ويحمل كل جزء (عقلة . حلقة . شدفة) زوجا من الأرجل، ثم تحمل الشدفة الثانية والثالثة زوجا من الأجنحة لكل منهما، وينتهي الجسم ببطن مقسمة إلى شدف، وفى نهايتها آلة لسع تسمى "اللاسعة" تلدغ بها من يهاجمها أو يريد إلحاق الضرر بها.

ب. مكونات أجهزة النحلة

(1) **حاسة الشم:**(**أنظر صورة قرن استشعار نحلة**): يتركب قرن الاستشعار في النحلة من 12 عقلة كل عقلة تحتوي على مئات الخلايا أو الشعيرات الحسية الدقيقة والتي تنقسم إلى نوعين: **مستقبلات المؤثرات الكيميائية** (هذه المستقبلات تقوم بوظيفة الأنف في الإنسان), حيث تستطيع النحلة عن طريقها تمييز رائحة ألف زهرة أو أكثر, بل وتحتفظ برائحة هذه الزهور في ذاكرتها في المخ – **مستقبلات المؤثرات الميكانيكية** (هذه المستقبلات تقوم بوظيفة الأذن في الإنسان, حيث تقوم باستقبال الذبذبات والترددات في الهواء وتقوم بنقله إلى مخ النحلة الذي يترجمه إلى أصوات. تستطيع هذه الشعيرات أيضاً قياس الضغط الخارجي وضغط الجسم.

(2) **حاسة السمع:** الغريب في وظيفة الشعيرات الخاصة بالسمع هو استخدامها في تصنيع أقراص الشمع داخل الخلية لكي تضع الملكة فيها البيض، حيث تقيس سُمك قرص الشمع الذي سوف تضع فيه الملكة البيض، فسُمك قرص الشمع للملكات يختلف عن الذكور والشغالات، تستطيع الذكور أيضا بهذه الحاسة تتبع الملكة ومعرفة مكانها أثناء طيران العرس (التلقيح) وذلك عن طريق استقبال ذبذبات أجنحتها.

(3) **حاسة اللمس:** تستطيع النحلة أن تحس بنعومة الأسطح أو خشونتها أو ارتفاعها أو انخفاضها كل ذلك تحدده بدقة مثل الإنسان تماماً عن طريق استخدام الشعيرات الدقيقة لمستقبلات المؤثرات الميكانيكية.

(4) **حاسة البصر أو الرؤية (انظر صورة عين نحلة):** تستطيع النحلة أن ترى عن طريق زوج من العيون المركبة وثلاثة أعين بسيطة توجد في منتصف الرأس، تحتوى كل عين مركبة على 4500 عيينة صغيرة, كل عيينة صغيرة تتركب من 9 خلايا مستقبلات للضوء تشبه شبكية عين الإنسان: خليتان منها لاستقبال الضوء الأخضر, وخليتان لاستقبال الضوء الأزرق, وخليتان

لاستقبال الاشعة فوق البنفسجية, وخليتان لاستقبال خليط من الضوء، واخيرا خلية واحدة ترى الضوء المستقطب والأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس من خلال السحاب الركامي، وفي حالة نظر النحلة إلى أسفل فإن هاتين الخليتين تكونان حساستين للون الأخضر, أما إذا نظرت لأعلى فإن هاتين الخليتين تكونان حساستين للأشعة فوق البنفسجية.

(5). **فم النحلة (انظر صورة فم نحلة):** يتركب فم النحلة من عدة أجزاء قارضة لاعقه (شفة عليا . شفة سفلي . فك علوي . فك سفلي) تستخدم النحلة فمها في قرض الزهور كي تستطيع الدخول إلى الرحيق في وسط الزهرة, وعندما تنطبق أجزاء الفم هذه على بعضها فإنها تكون خرطوما ماصا أنبوبياً قوياً ، يمكن أن يدخل في الأزهار بعمق.

(6) **حاسة التذوق:** تستطيع النحلة أن تفرق بين طعم رحيق الزهور المختلفة, فهي تميز الطعام الحلو, اللاذع, الحمضي وكذا كريه الرائحة. لقد خلق الله ﷻ لها أنواعا من الخلايا الحسية الدقيقة على ملمس الشفاه ولسانها وهي تشبه خلايا التذوق في الإنسان.

3. كيف يبنى النحل بيته

يقول العلماء حقائق علمية مدهشة!!، تؤكد عظمة القرآن وإعجازه، في كل العصور، لقد خلق الله ﷻ للنحلة آلة هندسية رائعة تشبه المنقلة الهندسية توجد في منطقة العنق، وهى عبارة عن غشاء مفصلي يربط بين الصدر والبطن، هذا الغشاء يسمح للنحلة أن تحرك كل من الصدر والبطن بحرية كاملة. وعندما تريد النحلة رسم الشكل السداسي لأقراص الشمع في الخلية, فإن هذه الآلة تتحكم في حركة أرجل النحلة وتوجه أرجلها لترسم الشكل الهندسي السداسي بكل دقة (**أنظر صورة خلايا سداسية**)، ومن المعروف في علم الهندسة والرياضيات أن الشكل السداسي هو أكثر الأشكال الهندسية دقة من حيث عدم ترك أي مساحات خالية إذا رسم بجانب أشكال سداسية أخرى.

تصنع النحلة حجرات تخزين العسل مائلة 13 درجة. وذلك لأن درجة الميل لو كانت أكثر من ذلك فإن العسل سيتجمع أسفل القرص ويكون من الصعب على النحل أن يحصل عليه, ولو كانت درجة الميل أقل من ذلك فإن العسل يمكن أن ينساب خارج الأقراص.

تستخدم النحلة خاصية الاتزان لتهيئة الجسم للوضع المثالي أثناء الطيران, وذلك عن طريق الآلة الهندسية التي توجد في العنق، وعن طريقها تستطيع النحلة أن تتحكم في حركة رأسها, لكي تستطيع الطيران في وضع عمودي أو مستقيم فيسهل لها بناء بيتها بدقة.

---

(3) **حاسة اللمس:** تستطيع النحلة أن تحس بنعومة الأسطح أو خشونتها أو ارتفاعها أو انخفاضها كل ذلك تحدده بدقة مثل الإنسان تماماً عن طريق استخدام الشعيرات الدقيقة لمستقبلات المؤثرات الميكانيكية.

(4) **حاسة البصر أو الرؤية (أنظر صورة عين نحلة):** تستطيع النحلة أن ترى عن طريق زوج من العيون المركبة وثلاثة أعين بسيطة توجد في منتصف الرأس، تحتوى كل عين مركبة على 4500 عيينة صغيرة, كل عيينة صغيرة تتركب من 9 خلايا مستقبلات للضوء تشبه شبكية عين الإنسان: خليتان منها لاستقبال الضوء الأخضر, وخليتان لاستقبال الضوء الأزرق, وخليتان لاستقبال الاشعة فوق البنفسجية, وخليتان لاستقبال خليط من الضوء، واخيرا خلية واحدة ترى الضوء المستقطب والأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس من خلال السحاب الركامي، وفي حالة نظر النحلة إلى أسفل فإن هاتين الخليتين تكونان حساستين للون الأخضر, أما إذا نظرت لأعلى فإن هاتين الخليتين تكونان حساستين للأشعة فوق البنفسجية.

(5). **فم النحلة (أنظر صورة فم نحلة):** يتركب فم النحلة من عدة أجزاء قارضة لاعقه (شفة عليا . شفة سفلي . فك علوي . فك سفلي) تستخدم النحلة فمها في قرض الزهور كي تستطيع الدخول إلى الرحيق في وسط الزهرة, وعندما تنطبق أجزاء الفم هذه على بعضها فإنها تكون خرطوما ماصا أنبوبياً قوياً ، يمكن أن يدخل في الأزهار بعمق.

(6) **حاسة التذوق:** تستطيع النحلة أن تفرق بين طعم رحيق الزهور المختلفة, فهي تميز الطعام الحلو, اللاذع, الحمضي وكذا كريه الرائحة. لقد خلق الله ﷻ لها أنواعا من الخلايا الحسية الدقيقة على ملمس الشفاه ولسانها وهي تشبه خلايا التذوق في الإنسان.

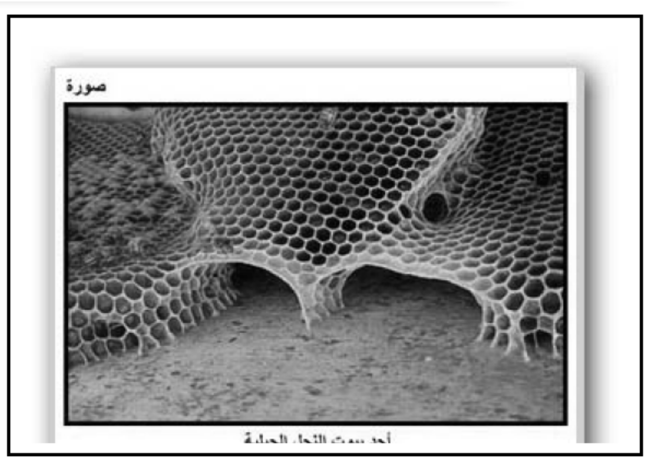
وأقراص الشمع في خلايا النحل الجبلية أو التي على الأشجار يختلف مكان وجودها في الخلية، فالأقراص المخصصة لتربية الصغار تكون معلقة في السقف، أما الأقراص المخصصة لتخزين العسل وغبار الطلع تغلق عيونها بقطع من الشمع لحفظ ما يوجد بها من التبخر والفساد.

4. الخلاصة

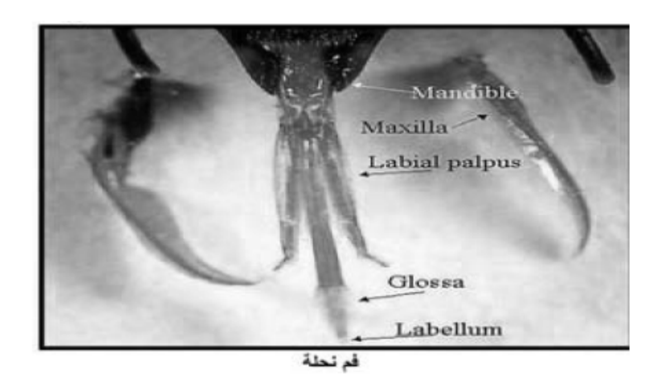
مما سبق وبعد عرض تلك الحقائق العلمية المهمة يتبين مدي الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَأَوحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (سورة النحل: الآية 68). فلم تكن تلك المعلومات متاحة عند المسلمين منذ 1400 سنة كما هي متاحة الآن، لتؤكد أن الذي أوجد تلك الحقائق العلمية عن النحل وبيوت النحل، هو الذي أنزل هذا القرآن الكريم، وهو الذي أوحى إلى عبده ورسوله محمدا ﷺ بتلك المعلومات العجيبة منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، قبل أن يكتشفها العلماء الآن بهذه الدقة.



النحلة تصنع بيتا سداسي الأشكال



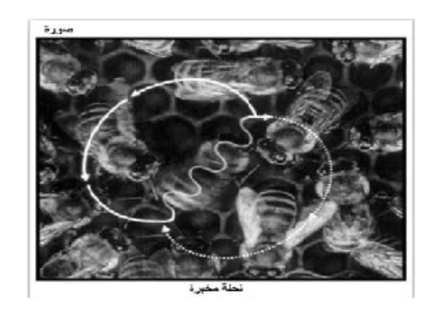
أحد بيوت النحل الجبلية



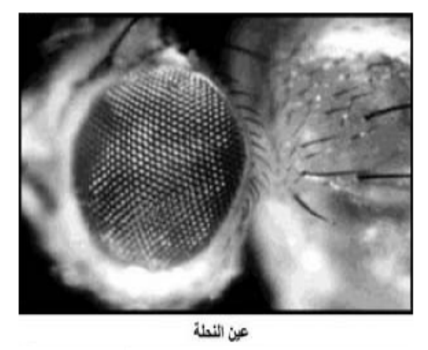
فم نحلة



الملكة والذكر والشغالة



نحلة مخبرة


عين النحلة


قرن استشعار نحلة

وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين و ظلمهم فقال:-(وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)آلهة اتخذوها شركاء لله

(مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ)و الحال أنهم لا يملكون لهم

(رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا)

فلا ينزلون مطرا و لا رزقا و لا ينبتون من نبات الأرض شيئا و لا يملكون مثقال ذرة في السماوات و الأرض

(وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ)لو أرادوا

فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة و اقتدار على ما ينفع من يتصل به و هؤلاء لا يملكون و لا يقدرون.

فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله و شبهوها بمالك الأرض و السماوات الذى له الملك كله و الحمد كله و القوة كلها ؟!! 73

و لهذا قال:-(فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ)المتضمنة للتسوية بينه و بين خلقه

(إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ)فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم و أن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال74

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا)ضرب تعالى مثلين له و لمن يعبد من دونه أحدهما

(عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا)رقيق(لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ)لا يملك نفسه و لا يملك من المال و الدنيا شيئا

(وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا)و الثانى حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه

(رِزۡقًا حَسَنٗا)من جميع أصناف المال و هو كريم محب للإحسان

(فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ)هل يستوى هذا و ذاك؟!

لا يستويان مع أنهما مخلوقان غير محال استواؤهما.

*فإذا كانا لا يستويان فكيف يستوى المخلوق العبد الذى ليس له ملك و لا قدرة و لا استطاعة

بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟!!

*الصحيح المسند من أسباب النزول ابن جرير عن ابن عباس فى قوله عز وجل :-

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا}قال: نزلت فى رجل من قريش وعبده و فى قوله

{مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ}إلى قوله {وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} قال هو عثمان بن عفان

قال:و الأبكم الذي أينما يوجهه لا يأتي بخير ذاك مولى عثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه و يكفله

و يكفيه المؤونة و كان الآخر يكره الإسلام و يأباه و ينهاه عن الصدقة و المعروف فنزلت فيهما.

و لهذا حمد نفسه و اختص بالحمد بأنواعه فقال:-

(ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ)فكأنه قيل:-إذا كان الأمر كذلك فلم سوَّى المشركون آلهتهم بالله؟

قال:-(بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ)فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم75

(وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا)و المثل الثانى مثل

(رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ)لا يسمع و لا ينطق

و (لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ)لا قليل و لا كثير

(وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ)يخدمه مولاه و لا يستطيع هو أن يخدم نفسه فهو ناقص من كل وجه

(أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ)يبعثه(لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ)فهل يستوى هذا

(وَمَن)كان(يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ)فأقواله عدل

(وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)و أفعاله مستقيمة

فكما أنهما لا يستويان فلا يستوى من عبد من دون الله و هو لا يقدر على شيء من مصالحه فلولا قيام الله بها

لم يستطع شيئا منها و لا يكون كفوا و ندا لمن لا يقول إلا الحق و لا يفعل إلا ما يحمد عليه76

(وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ)

هو تعالى المنفرد بغيب السماوات و الأرض فلا يعلم الخفايا و البواطن والأسرار إلا هو

(وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ)و من ذلك علم الساعة فلا يدرى أحد متى تأتى إلا الله فإذا جاءت و تجلت لم تكن

(إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ)إلا كنظرة سريعة بالبصر

(أَوۡ)بل(هُوَ أَقۡرَبُۚ) هو أسرع من ذلك.

*من ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلي يوم بعثهم و نشورهم و تفوت الفرص لمن يريد الإمهال

*كقوله{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}فَيَكُونُ مَا يُرِيدُ كَطَرْفِ الْعَيْنِ

كَمَا قَالَ:{مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [لُقْمَانَ: 28]

(إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياؤه للموتى﴿٧٧﴾

(وَٱللَّهُ)أى:هو المنفرد بهذه النعم حيث(أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا)و لا تقدرون على شيء

ثم إنه(وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ) خص هذه الأعضاء الثلاثة لـ:-

1-شرفها و فضلهـا

2-و لأنهـا مفتاح لكل علم

فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة و إلا فسائر الأعضاء و القوى الظاهرة و الباطنة هو الذى أعطاهم إياها و جعل ينميها فيهم شيئا فشيئا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به

(لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)و ذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله

فمن استعملها فى غير ذلك كانت حجة عليه و قابل النعمة بأقبح المقابلة.

*ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى منَّته عَلَى عِبَادِهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يعلمون شيئًا ثم بعد هَذَا يَرْزُقُهُمْ تَعَالَى السَّمْعَ الَّذِي بِهِ يُدْرِكُونَ الْأَصْوَاتَ وَ الْأَبْصَارَ اللَّاتِي بِهَا يُحِسُّونَ الْمَرْئِيَّاتِ وَ الْأَفْئِدَةَ-وَ هِيَ الْعُقُولُ-الَّتِي مَرْكَزُهَا الْقَلْبُ عَلَى الصَّحِيحِ وَ قِيلَ: الدِّمَاغُ وَ الْعَقْلُ بِهِ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ضَارِّهَا وَنَافِعِهَا.

وَ هَذِهِ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى التَّدْرِيجِ قَلِيلًا قَلِيلًا كُلَّمَا كَبِرَ زِيدَ فِي سَمْعِهِ وَ بَصَرِهِ وَ عَقْلِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.

وَ إِنَّمَا جَعَلَ تَعَالَى هَذِهِ فِي الْإِنْسَانِ لِيَتَمَكَّنَ بِهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَى فَيَسْتَعِينُ بِكُلِّ جَارِحَةٍ وَ عُضْوٍ وَ قُوَّةٍ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَاهُ كما جاء فى الحديث

*البخارى6502 -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-إِنَّ اللَّهَ قَالَ:-

مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا(هو العالم بدين الله تعالى المواظب على طاعته المخلص في عبادته)فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ(أعلمته بالهلاك والنكال)

وَ مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِى بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ(من الفروض العينية وفروض الكفاية)

وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ:-كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ

وَ بَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ وَ يَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا وَ رِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا

وَ إِنْ سَأَلَنِى لَأُعْطِيَنَّهُ وَ لَئِنِ اسْتَعَاذَنِى(استجار بي مما يخاف)لَأُعِيذَنَّهُ

وَ مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وَ أَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ(إساءته بفعل ما يكره)"

فَمَعْنَى الْحَدِيثِ:-أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْلَصَ الطَّاعَةَ صَارَتْ أَفْعَالُهُ كُلُّهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا يُبْصِرُ إِلَّا اللَّهَ أَيْ:مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ وَ لَا يَبْطِشُ وَ لَا يَمْشِى إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ

وَ لِهَذَا جَاءَ فِي بَعْضِ رِوَايَةِ الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ الصَّحِيحِ بَعْدَ قَوْلِهِ:-"وَ رِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا":

"فَبِى يَسْمَعُ وَ بِى يُبْصِرُ وَ بِى يَبْطِشُ وَ بِى يَمْشِى"

*أن العبد المؤمن إذا اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض ثم بالنوافل قرّبه ربه إليه و رقّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان فيصير يعبد الله كأنه يراه

فيمتلئ قلبه بمعرفة ربه ومحبته و تعظيمه و خوفه ومهابته وإجلاله

فإذا امتلأ القلب بذلك زال منه كل تعلق بكل ما سوى الله و لم يبق للعبد تعلق بشيء من هواه

و لا إرادة إلا ما يريده منه ربه و مولاه فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره و لا يتحرك إلا بأمره

*فإن نطق نطق بالله و إن سمع سمع بالله و إن نظر نظر بالله أى بتوفيق الله له فى هذه الأمور

فلا يسمع إلا ما يحبه الله و لا يبصر إلا ما يرضى الله و لا يبطش بيده و لا يمشى برجله إلا فيما يرضى ربه ومولاه فيوفقه فى سمعه و بصره و مشيه و بطشه

و لهذا جاء فى الرواية الأخرى يقول سبحانه :- فبى يسمع و بى يبصر و بى يبطش و بى يمشى " يعنى :-

أن يوفقه فى أعماله و أقواله و سمعه و بصره(جامع العلوم والحكم و فتاوى نور على الدرب الشريط(10)لسماحة الشيخ ابن باز رحمه الله)

وَ لِهَذَا قَالَ{وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}كَمَا قَالَ{قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ23 قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[المُلْكِ] (78)

(أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ)

و وجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف

ثم أودع فيها من قوة الحركة و ما قدرت به على ذلك و ذلك دليل على كمال حكمته و علمه الواسع و عنايته الربانية بجميع مخلوقاته و كمال اقتداره تبارك الله رب العالمين.

(مَا يُمْسِكُهُنَّ)عن الوقوع (إِلَّا ٱللَّهُ)هو سبحانه بما خَلَقه لها وأقدرها عليه

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ)التذليل و الإمساك

(لَأَيَٰتٍ)لدلالات(لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)بما يرونه من الأدلة على قدرة الله

*أى: لأنهم المنتفعون بآيات الله المتفكرون فيما جعلت آية عليه و أما غيرهم فإن نظرهم نظر لهو و غفلة(79)

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾

*يذكر تعالى عباده نعمه و يستدعي منهم شكرها و الاعتراف بها فقال:

(وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا)راحة و استقرارًا مع أهلكم فى الدور و القصور و نحوها تكنُّكم من الحر و البرد و تستركم أنتم و أولادكم و أمتعتكم و تتخذون فيها الغرف و البيوت التى هى لأنواع منافعكم و مصالحكم و فيها حفظ لأموالكم و حرمكم و غير ذلك من الفوائد المشاهدة

(وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ)إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه من صوف و شعر و وبر.

(بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا)أى: خفيفة الحمل تكون لكم فى السفر و المنازل التي لا قصد لكم في استيطانها

(يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ)سفركم(وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ)فتقيكم من الحر و البرد و المطر و تقى متاعكم من المطر

(وَ)جعل لكم(وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا)الغنم(وَأَوۡبَارِهَا)الإبل(وَأَشۡعَارِهَآ)أى الْمَعَزِ-وَ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْأَنْعَامِ-

(أَثَٰثٗا)و هذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية و الأوعية و الفرش و الألبسة و الأجلة و غير ذلك.
فَإِنَّهُ يُتَّخَذُ مِنَهَ الْأَثَاثِ الْبُسُطُ وَ الثِّيَابُ وَ غَيْرُ ذَلِكَوَ يُتَّخَذُ مَالًا وَ تِجَارَةً.

(وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ)أى:تتمتعون بذلك فى هذه الدنيا و تنتفعون بها فهذا مما سخر الله العباد لصنعته و عمله80

(وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ)أى: من مخلوقاته التى لا صنعة لكم فيها

(ظِلَٰلٗا)و ذلك كأظلة الأشجار و الجبال و الآكام و نحوها

(وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا)أي: مغارات تكنكم من الحر و البرد و الأمطار و الأعداء.

(وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ)ألبسة و ثيابا وَ هِيَ الثِّيَابُ مِنَ الْقُطْنِ وَ الْكَتَّانِ وَ الصُّوفِ

(تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ)و لم يذكر الله البرد لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها فى أصول النعم و آخرها فى مكملاتها و متمماتها و وقاية البرد من أصول النعم فإنه من الضرورة و قد ذكره فى أولها فى قوله{لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ}
[النحل: 5]

(وَسَرَٰبِيلَ)ثيابا(تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ)وقت البأس و الحرب من السلاح و ذلك كالدروع و الزرد و نحوها

(كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ)حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر

(لَعَلَّكُمۡ)إذا ذكرتم نعمة الله و رأيتموها غامرة لكم من كل وجه

(تُسۡلِمُونَ)لعظمته و تنقادون لأمره و تصرفونها في طاعة موليها و مسديها

*فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر و الثناء بها على الله تعالى و لكن أبى الظالمون إلا تمردا و عنادا81

و لهذا قال الله عنهم:–

(فَإِن تَوَلَّوۡاْ)عن الله و عن طاعته بعد ما ذُكِّروا بنعمه و آياته_بعد هذا البيان و هذا الامتنان فلا عليك منهم

(فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ)

أى: ليس عليك من هدايتهم و توفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ و التذكير و الإنذار و التحذير

فإذا أديت ما عليك فحسابهم على الله فإنهم يرون الإحسان82

(يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ)لكنهم(يُنكِرُونَهَا)و يجحدونها

(وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ)لا خير فيهم و ما ينفعهم توالى الآيات لفساد مشاعرهم و سوء قصودهم

و سيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم متمرد على الله و على رسله83

*يخبر تعالى عن حال الذين كفروا فى يوم القيامة و أنه لا يقبل لهم عذر و لا يرفع عنهم العقاب و أن شركاءهم تتبرأ منهم و يقرون على أنفسهم بالكفر و الافتراء على الله فقال:–

(وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا)يشهد عليهم بأعمالهم و ماذا أجابوا به الداعى إلى الهدى

و ذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكى الشهداء و أعدلهم و هم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم

بعض مشاهد يوم القيامة 84-89

(ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ)

فى الاعتذار لأن اعتذارهم بعد ما علم يقينا بطلان ما هم عليه اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئا

*كَمَا قَالَ:{هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ35 وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [الْمُرْسَلَاتِ]

(وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)و إن طلبوا أيضا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا و لم يعتبوا

*و لا يُطْلب منهم إرضاءُ ربهم بالتوبة و العمل الصالح فقد مضى أوان ذلك84

(وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟)أى:–الذين أشركوا(ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ)الذى لا يخفف عنهم

(وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)بل يبادرهم العذاب الشديد من غير إنظار و لا إمهال من حين يرونه لأنهم لا حساب عليهم

لأنهم لا حسنات لهم و إنما تعد أعمالهم و تحصى و يوقفون عليها و يقرون بها و يفتضحون85

(وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ)

آلهتهم التى عبدوها مع الله يوم القيامة و علموا بطلانها و لم يمكنهم الإنكار.

(قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ)

ليس عندها نفع و لا شفع فنوَّهوا بأنفسهم ببطلانها و كفروا بها و بدت البغضاء و العداوة بينهم و بينها

(فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ)ردت عليهم شركاؤهم قولهم فقالت لهم:

(إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ)

حيث جعلتمونا شركاء لله و عبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك و لا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية فاللوم عليكم.

*كَمَا قَالَ{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ5وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الْأَحْقَافِ]

وَ قَالَ تَعَالَى:{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا81 كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مَرْيَمَ]

وَ قَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام:

{ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[الْعَنْكَبُوتِ: 25]

وَ قَالَ{وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا}[الْكَهْفِ: 52]86

(وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ)فحينئذ استسلموا لله و خضعوا لحكمه و علموا إنهم مستحقون للعذاب.

*اسْتَسْلَمُوا لِلَّهِ جَمِيعِهِمْ فَلَا أَحَدَ إِلَّا سَامِعٌ مُطِيعٌ كَمَا قَالَ:-{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [مَرْيَمَ: 38]

أَيْ: مَا أَسْمَعَهُمْ وَ مَا أَبْصَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ! وَ قَالَ تَعَالَى:-

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}[السجدة: 12]

و قال: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: 111]أَيْ: خَضَعَتْ وَ ذَلَّتْ وَ اسْتَكَانَتْ وَ أَنَابَتْ وَ اسْتَسْلَمَتْ.

(وَضَلَّ)غاب(عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ)يختلقونه من الأكاذيب و أن آلهتهم تشفع لهم.

*فدخلوا النار و قد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم و من حمد ربهم و أنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا87

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾
وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ
وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾
وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ
دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ
وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ)
حيث كفروا بأنفسهم و كذبوا بآيات الله و حاربوا رسله و صدوا الناس عن سبيل الله و صاروا دعاة إلى الضلال فاستحقوا مضاعفة العذاب كما تضاعف جرمهم

(بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ)بسبب افسادهم في أرض الله.
*عَذَابًا عَلَى كُفْرِهِمْ وَ عَذَابًا عَلَى صَدِّهِمُ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ
كَمَا قَالَ{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ}[الْأَنْعَامِ: 26]أَيْ:يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَ يَبْتَعِدُونَ هُمْ مِنْهُ أَيْضًا
{وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[الأنعام: 26]
*وَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَفَاوُتِ الْكُفَّارِ فِي عَذَابِهِمْ كَمَا يَتَفَاوَتُ الْمُؤْمِنُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَ دَرَجَاتِهِمْ
كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} [الْأَعْرَافِ: 38] ﴿٨٨﴾

(وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ)لما ذكر فيما تقدم أنه يبعث(فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ)ذكر ذلك أيضا هنا و خص منهم هذا الرسول الكريم فقال:-

(وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ)أي:على أمتك تشهد عليهم بالخير و الشر و هذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمته لأنه أعظم اطلاعا من غيره على أعمال أمته و أعدل و أشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.و هذا كقوله(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)
و قال تعالى {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا41 يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء]

(وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ)فى أصول الدين و فروعه و فى أحكام الدارين و كل ما يحتاج إليه العباد فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة و معان جلية

*حتى إنه تعالى يثنى فيه الأمور الكبار التى يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت و إعادتها فى كل ساعة و يعيدها و يبديها بألفاظ مختلفة و أدلة متنوعة لتستقر فى القلوب فتثمر من الخير و البر بحسب ثبوتها فى القلب

*و حتى إنه تعالى يجمع فى اللفظ القليل الواضح معانى كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة و الأساس

*و اعتبر هذا بالآية التى بعد هذه الآية و ما فيها من أنواع الأوامر و النواهي التى لا تحصى

*فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم فانقطعت به حجة الظالمين و انتفع به المسلمون

(وَهُدٗى)فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم و دنياهم فالهدى ما نالوه به من علم نافع و عمل صالح.

(وَرَحۡمَةٗ)ينالون به كل خير فى الدنيا و الآخرة و الرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا و الآخرة

كـ:-صلاح القلب و بره و طمأنينته و تمام العقل الذى لا يتم إلا بتربيته على معانيه التى هى أجل المعانى و أعلاها و الأعمال الكريمة و الأخلاق الفاضلة و الرزق الواسع و النصر على الأعداء بالقول و الفعل و نيل رضا الله تعالى و كرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

(وَبُشۡرَىٰ)بشارة طيبة(لِلۡمُسۡلِمِينَ)للمؤمنين بحسن مصيرهم (٨٩)

(إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ)فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل فى حقه و فى حق عباده

*فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدى العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية و البدنية و المركبة منهما في حقه و حق عباده

*و يعامل الخلق بالعدل التام فيؤدى كل وال ما عليه تحت ولايته سواء فى ذلك ولاية الإمامة الكبرى و ولاية القضاء و نواب الخليفة و نواب القاضى.

*و العدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه و على لسان رسوله و أمرهم بسلوكه

*و من العدل فى المعاملات أن تعاملهم فى عقود البيع و الشراء و سائر المعاوضات بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقا و لا تغشهم و لا تخدعهم و تظلمهم. فالعدل واجب

*كَمَا قَالَ{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النَّحْلِ: 126]

(وَٱلۡإِحۡسَٰنِ)و يأمر بالإحسان فى:-

توجيهات للمؤمنين و الحياة الطيبة لهم 90-97

1-حقه بعبادته و أداء فرائضه على الوجه المشروع

2-و إلى الخلق فى الأقوال و الأفعال كنفع الناس بالمال و البدن و العلم و غير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول و غيره.

و خص الله(وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ)–و إن كان داخلا فى العموم– لتأكد حقهم و تعين صلتهم و برهم و الحرص على ذلك.

و يدخل فى ذلك جميع الأقارب قريبهم و بعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

(وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ)المحرمات

*و هو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع و الفطر كـ:–

الشرك بالله و القتل بغير حق و الزنا و السرقة و العجب و الكبر و احتقار الخلق و غير ذلك من الفواحش.

(وَٱلْمُنكَرِ)و يدخل فى المنكر كل ذنب و معصية متعلق بحق الله تعالى.

(وَٱلْبَغْيِ)و يدخل فى البغى :–كل عدوان على الخلق فى الدماء و الأموال و الأعراض.

*أبي داود 4902 عَنْ أَبِي بَكْرَةَ﷛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِثْلُ الْبَغْيِ وَ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ»

*فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات و المنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذى القربى فهى مما أمر الله به.

و كل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغى فهى مما نهى الله عنه.

و بها يعلم حسن ما أمر الله به و قبح ما نهى عنه و بها يعتبر ما عند الناس من الأقوال و ترد إليها سائر الأحوال فتبارك من جعل فى كلامه الهدى و الشفاء و النور و الفرقان بين جميع الأشياء.

و لهذا قال:(يَعِظُكُمْ)به .أى:–بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم و نهيكم عما فيه مضرتكم.

(لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)ما يعظكم به فتفهمونه و تعقلونه

فإنكم إذا تذكرتموه و عقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.

*عن ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ:إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ النَّحْلِ:-{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ}رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ٩٠

*فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال:–

(وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ)

و هذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات و النذور و الأيمان التى عقدها إذا كان الوفاء بها برا و يشمل أيضا ما تعاقد عليه هو و غيره كالعهود بين المتعاقدين

و كالوعد الذى يعده العبد لغيره و يؤكده على نفسه فعليه فى جميع ذلك الوفاء و تتميمها مع القدرة

و لهذا نهى الله عن نقضها فقال:–

(وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)بعقدها على اسم الله تعالى:–

(وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ)أيها المتعاقدون

(كَفِيلًا)ضامنًا حين عاهدتموه

*فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا فيكون ذلك ترك تعظيم الله و استهانة به

و قد رضى الآخر منك باليمين و التوكيد الذى جعلت الله فيه كفيلا.

فكما ائتمنك و أحسن ظنه فيك فَلْتَفِ له بما قلته و أكدته.

(إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)يجازى كل عامل بعمله على حسب نيته و مقصده.

*أحمد 5088 - عَنْ نَافِعٍ قَالَ:-لَمَّا خَلَعَ النَّاسُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ جَمَعَ ابْنُ عُمَرَ بَنِيهِ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ تَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ:
أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعِ اللهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ:-
إِنَّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ:-هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ
وَ إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْغَدْرِ أَنْ لَا يَكُونَ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ تَعَالَى أَنْ يُبَايِعَ رَجُلٌ رَجُلًا عَلَى بَيْعِ اللهِ وَ رَسُولِهِ
ثُمَّ يَنْكُثَ بَيْعَتَهُ فَلَا يَخْلَعَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَزِيدَ وَ لَا يُشْرِفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَيَكُونَ صَيْلَمٌ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ

(٩١)

(وَلَا تَكُونُوا۟)فى نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال و أقبحها و أدلها على سفه متعاطيها

و ذلك (كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ)هى حمقاء مكة و تدعى رَيْطَة بنت سعد بن تيم القرشية.

*تغزل غزلا قويا فإذا استحكم و تم ما أريد منه نقضته فجعلته

(أَنكَٰثًا)جمع نكث و هو ما ينكث و يحل بعد الإبرام.

*فتعبت على الغزل ثم على النقض و لم تستفد سوى الخيبة و العناء و سفاهة العقل و نقص الرأى

فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين و المروءة.

(تَتَّخِذُونَ)تجعلون(أَيْمَٰنَكُمْ)التى حلفتموها عند التعاهد(دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ)خديعة لمن عاهدتموه

*أى:لا تنبغى هذه الحالة منكم تعقدون الأيمان المؤكدة و تنتظرون فيها الفرص:–

⇦فإذا كان العاقد لها ضعيفا غير قادر على الآخر أتمها لا لتعظيم العقد و اليمين بل لعجزه

⇦و إن كان قويا يرى مصلحته الدنيوية فى نقضها نقضها غير مبال بعهد الله و يمينه.

كل ذلك دورانا مع أهوية النفوس و تقديما لها على مراد الله منكم و على المروءة الإنسانية و الأخلاق المرضية

لأجل(أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ)أكثر عددا و قوة(مِنْ أُمَّةٍ)أخرى

و تنقضون عهدكم إذا وجدتم جماعة أكثر مالا و منفعة من الذين عاهدتموهم

(إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ)

و هذا ابتلاء من الله و امتحان يبتليكم الله به حيث قيض من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفى من الفاجر الشقى.

(وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ)فيجازى كلا بما عمل و يخزى الغادر.

*و ليُبيِّنَنَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فى الدنيا من الإيمان بالله و نبوة محمد ﷺ ﴿٩٢﴾

(وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ)لجمع الناس على الهدى و جعلهم

(أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ)كَمَا قَالَ{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[يُونُس: 99]أَىْ: لَوَفَّقَ بَيْنَكُمْ.
وَ لَمَا جَعَلَ اخْتِلَافًا وَ لَا تباغُضَ وَ لَا شَحْنَاءَ

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ 118 إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هُودٍ]

(وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ)

و لكنه تعالى المنفرد بالهداية و الإضلال و هدايته و إضلاله من أفعاله التابعة لعلمه و حكمته يعطى الهداية من يستحقها فضلا و يمنعها من لا يستحقها عدلا.

(وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ)من خير و شر فيجازيكم عليها أتم الجزاء و أعدله.

*ثُمَّ يَسْأَلُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا عَلَى الْفَتِيلِ وَ النَّقِيرِ و القطْمير93

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

(وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ)و عهودكم و مواثيقكم

(دَخَلَۢا)خَدِيعَةً وَ مَكْرًا (بَيۡنَكُمۡ)تبعا لأهوائكم متى شئتم وفيتم بها و متى شئتم نقضتموها

(فَتَزِلَّ)تنزلق(قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا)فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم

*مَثَلٌ لِمَنْ كَانَ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ فَحَادَ عَنْهَا وَ زَلَّ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى بِسَبَبِ الْأَيْمَانِ الْحَانِثَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا رَأَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ عَاهَدَهُ ثُمَّ غَدَرَ بِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ وُثُوقٌ بِالدِّينِ فَانْصَدَّ بِسَبَبِهِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ

وَ لِهَذَا قَالَ(وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ)أى: العذاب الذى يسوءكم و يحزنكم

(بِمَا صَدَدتُّمۡ)حيث ضللتم و أضللتم غيركم (وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ)مضاعف﴿٩٤﴾

يحذر تعالى عباده من نقض العهود و الأيمان لأجل متاع الدنيا و حطامها فقال:-

(وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ)تنالونه بالنقض و عدم الوفاء

(إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ)من الثواب العاجل و الآجل لمن آثر رضاه و أوفى بما عاهد عليه الله

(هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ)من حطام الدنيا الزائلة(إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)فآثروا ما يبقى على ما يفنى﴿٩٥﴾

فإن الذى(مَا عِندَكُمۡ)و لو كثر جدا لا بد أن(يَنفَدُ)و يفنى

(وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ)جَزَاءُ اللَّهِ وَ ثَوَابُهُ خَيْرٌ لِمَنْ رَجَاهُ وَ آمَنَ بِهِ وَ طَلَبَهُ وَ حَفِظَ عَهْدَهُ رَجَاءَ مَوْعُودِهِ

وَ لِهَذَا قَالَ: {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ}

*ببقائه لا يفنى و لا يزول فليس بعاقل من آثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس و هذا كقوله تعالى:-

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ)

و فى هذا الحث و الترغيب على الزهد فى الدنيا خصوصا الزهد المتعين و هو الزهد فيما يكون ضررا على العبد و يوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه و تقديمه على حق الله فإن هذا الزهد واجب

و من الدواعى للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا و شهواتها بخيرات الآخرة فإنه يجد من الفرق و التفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين و ليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كـ:-

الصلاة و الصيام و الذكر و نحوها

بل لا يكون العبد زاهدا زهدا صحيحا حتى يقوم بما يقدر عليه من:-

1-الأوامر الشرعية الظاهرة و الباطنة

2-و من الدعوة إلى الله و إلى دينه بالقول و الفعل

فالزهد الحقيقى هو الزهد فيما لا ينفع في الدين و الدنيا و الرغبة و السعى فى كل ما ينفع .

(وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ)على طاعة الله و عن معصيته و فطموا نفوسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم

(أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة

فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ﴿٩٦﴾

و لهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا و الآخرة فقال:-

(مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة و قبولها

*بل لا تسمى أعمالا صالحة إلا بالإيمان و الإيمان مقتض لها فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات و المستحبات فمن جمع بين الإيمان و العمل الصالح

(فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً)

و ذلك بطمأنينة قلبه و سكون نفسه و عدم التفاته لما يشوش عليه قلبه و يرزقه الله رزقا حلالا طيبا من حيث لا يحتسب

*وَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَشْمَلُ وُجُوهَ الرَّاحَةِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ

*مسلم (1054)عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:-

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَ رُزِقَ كَفَافًا(الذى لا يفضل عن الشىء و يكون بقدر الحاجة إليه و هو نصب على الحال)وَ قَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»

*مسلم(2808) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً(معناه لا يترك مجازاته بشيء من حسناته والظلم يطلق بمعنى النقص)يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ يُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ

وَ أَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ(صار إليها)لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ)فى الآخرة_و لنُثِيبنَّ الذين تحمَّلوا مشاق التكاليف-و منها الوفاء بالعهد-

(أَجْرَهُم)ثوابهم من أصناف اللذات مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر فيؤتيه الله فى الدنيا حسنة و فى الآخرة حسنة

(بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)بأحسن أعمالهم فنعطيهم على أدناها كما نعطيهم على أعلاها تفضُّلا﴿٩٧﴾

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)المطرود من رحمة الله

*هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ:-
إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أَنْ يَسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.وَ هُوَ أمرُ ندبٍ لَيْسَ بِوَاجِبٍ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ.
وَ الْمَعْنَى فِي الِاسْتِعَاذَةِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْقِرَاءَةِ لِئَلَّا يُلْبَسَ عَلَى الْقَارِئِ قِرَاءَتُهُ وَ يُخْلَطَ عَلَيْهِ وَ يَمْنَعُهُ مِنَ التَّدَبُّرِ وَ التَّفَكُّرِ

*أى:فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذى هو أشرف الكتب و أجلها و فيه صلاح القلوب و العلوم الكثيرة فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه فى الأمور الفاضلة فيسعى فى صرفه عن مقاصدها و معانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله و الاستعاذة به من شره فيقول القارئ:-

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »

القرآن و تهديد المفترين عليه 98-105

1-متدبرا لمعناها

2-معتمدا بقلبه على الله فى صرفه عنه

3-مجتهدا فى دفع وساوسه و أفكاره الردية

4-مجتهدا على السبب الأقوى فى دفعه و هو التحلى بحلية الإيمان و التوكل﴿٩٨﴾

(إِنَّهُ)فإن الشيطان(لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ)تسلط

*قَالَ الثَّوْرِيُّ: لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ أَنْ يُوقِعَهُمْ فِي ذَنْبٍ لَا يَتُوبُونَ مِنْهُ.
*وَ قَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ لَا حُجَّةَ لَهُ عَلَيْهِمْ. وَ قَالَ آخَرُونَ:-كَقَوْلِهِ:-{إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: 83]

(عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ)وحده لا شريك له

(يَتَوَكَّلُونَ)يعتمدون.فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان و لا يبق له عليهم سبيل﴿٩٩﴾

(إِنَّمَا سُلْطَانُهُ)تسلطه(عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ)يطيعونه_يجعلونه لهم وليا

(وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ)و ذلك بتخليهم عن ولاية الله و دخولهم فى طاعة الشيطان و انضمامهم لحزبه

فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم فأزّهم إلى المعاصى أزًّا وقادهم إلى النار قَوْدًا.

(بِهِۦ)وَ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ سَبَبِيَّةً أَىْ:-صَارُوا بِسَبَبِ طَاعَتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ مُشْرِكِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى﴿١٠٠﴾

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَعْفِ عُقُولِ الْمُشْرِكِينَ وَ قِلَّةِ ثَبَاتِهِمْ وَ إِيقَانِهِمْ وَ أَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُمُ الْإِيمَانَ وَ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةَ وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا تَغْيِيرَ الْأَحْكَامِ نَاسِخِهَا بِمَنْسُوخِهَا قَالُوا لِلرَّسُولِ:-{إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ}

(وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ)وَ قَالَ مُجَاهِدٌ:-أَىْ:-رَفَعْنَاهَا وَ أَثْبَتْنَا غَيْرَهَا.

وَ قَالَ قَتَادَةُ:-هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا} [البَقَرَة:106]

(وَٱللَّهُ)و الله الخالق (أَعْلَمُ)بمصلحة خَلْقه (بِمَا يُنَزِّلُ)ــه من الأحكام فى الأوقات المختلفة

*يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم و هو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم الذي يشرع الأحكام و يبدل حكما مكان آخر لحكمته و رحمته فإذا رأوه كذلك قدحوا فى الرسول و بما جاء به

و(قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ)كَذَّابٌ. وَ إِنَّمَا هُوَ الرَّبُّ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)فهم جهال لا علم لهم بربهم و لا بشرعه

و من المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به فإن القدح فى الشيء فرع عن العلم به و ما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القدح﴿١٠١﴾

و لهذا ذكر تعالى حكمته فى ذلك فقال:–

(قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ)هو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب و خيانة و آفة.

(مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ)بِالصِّدْقِ وَ الْعَدْلِ.أى:نزوله بالحق و هو مشتمل على:–الحق فى أخباره و أوامره و نواهيه

*فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحا صحيحا لأنه إذا عُلِم أنه الحق عُلِم أن ما عارضه و ناقضه باطل.

(لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)عند نزول آياته و تواردها عليهم وقتا بعد وقت

*فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئا فشيئا حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسى و أيضا فإنهم يعلمون أنه الحق

*و إذا شرع حكما من الأحكام ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم

*و أن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية و المناسبة العقلية.

(وَهُدًى)يهديهم إلى حقائق الأشياء و يبين لهم الحق من الباطل و الهدى من الضلال

(وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)و يبشرهم أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا.

و أيضا فإنه كلما نزل شيئا فشيئا كان أعظم هداية و بشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة و تفرق الفكر فيه بل ينزل الله حكما و بشارة أكثر

فإذا فهموه و عقلوه و عرفوا المراد منه و ترووا منه أنزل نظيره و هكذا.

و لذلك بلغ الصحابة ﭬبه مبلغا عظيما و تغيرت أخلاقهم و طبائعهم و انتقلوا إلى أخلاق و عوائد و أعمال فاقوا بها الأولين و الآخرين.

و كان أعلى و أولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه و يتخلقوا بأخلاقه و يستضيئوا بنوره فى ظلمات الغى و الجهالات و يجعلوه إمامهم فى جميع الحالات فبذلك تستقيم أمورهم الدينية و الدنيوية﴿١٠٢﴾

وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾

(وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ)يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله

(أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ)هذا الكتاب الذي جاء به

(بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ)و ذلك البشر الذى يشيرون إليه أعجمى اللسان

فإن لسان الذى نسبوا إليه تعليم النبى ﷺأعجمى لا يُفصح

(وَهَٰذَا)القرآن(لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ)هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟

و لكن الكاذب يكذب و لا يفكر فيما يؤول إليه كذبه فيكون فى قوله من التناقض و الفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره

*الصحيح المسند من أسباب النزول:ابن جرير

عن حصين هو[ابن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسلم الحضرمى]أنه كان لهم عبدان من أهل غير اليمن و كانا طفلين و كانا يقال لأحدهما يسار و الآخر جبر فكانا يقرآن التوراة و كان رسول الله ﷺربما جلس إليهما فقال كفار قريش:-إنما يجلس إليهما يتعلم منهما فأنزل الله سبحانه وتعالى:-

{لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}103

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ)الدالة دلالة صريحة على الحق المبين فيردونها و لا يقبلونها

*مِنَ الْكَفَرَةِ وَ الْمُلْحِدِينَ الْمَعْرُوفِينَ بِالْكَذِبِ عِنْدَ النَّاسِ.

وَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ أَصْدَقَ النَّاسِ وَأَبَرَّهُمْ وَأَكْمَلَهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِيمَانًا وَإِيقَانًا مَعْرُوفًا بِالصِّدْقِ فِي قَوْمِهِ لَا يَشُكُّ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِحَيْثُ لَا يُدْعى بينهم إلا بالأمين محمد

و لهذا لما سَأَلَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الَّتِى سَأَلَهَا مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺكَانَ فِيمَا قال له:-أو كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟
قَالَ: لَا.فَقَالَ:هِرَقْلُ فَمَا كَانَ لِيَدعِ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ(البخارى حديث7)

(لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ)حيث جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بحرمانه و خذلان الله لهم.

(وَلَهُمْ)فى الآخرة(عَذَابٌ أَلِيمٌ 104

(إِنَّمَا يَفْتَرِي)يختلق(ٱلْكَذِبَ)

*إنما يصدر افتراء الكذب من(ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ)كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات

(وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ)الكذب منحصر فيهم و عليهم أولى بأن يطلق من غيرهم.

*و أما محمد ﷺالمؤمن بآيات الله الخاضع لربه فمحال أن يكذب على الله و يتقول عليه ما لم يقل

فأعداؤه رموه بالكذب الذى هو وصفهم فأظهر الله خزيهم و بَيَّن فضائحهم فله تعالى الحمد105

إنما يفترى الكذب(مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ)نطق بكلمة الكفر و ارتدَّ بعد إيمانه

(إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ)أُرغم على النطق بالكفر فنطق به خوفًا من الهلاك

(وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ) بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ.ثابت على الإيمان فلا لوم عليه

(وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ)اطمأن قلبه(بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا)و نطق بالكفر

(فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ)شديد(مِّنَ ٱللَّهِ)و عذاب عظيم

و ذلك بسبب إيثارهم الدنيا و زينتها و تفضيلهم إياها على الآخرة و ثوابها و أن الله لا يهدى الكافرين و لا يوفقهم للحق و الصواب.

جزاء المرتدين و صفاتهم و المؤمنين 106-111

*فعمى بعد ما أبصر و رجع إلى الضلال بعد ما اهتدى و شرح صدره بالكفر راضيا به مطمئنا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذى إذا غضب لم يقم لغضبه شيء و غضب عليهم كل شيء
*فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِمَّنْ كَفَرَ بِلِسَانِهِ وَ وَافَقَ الْمُشْرِكِينَ بِلَفْظِهِ مُكْرَهًا لِمَا نَالَهُ مِنْ ضَرْبٍ وَ أَذًى وَقَلْبُهُ يَأْبَى مَا يَقُولُ وَ قَدْ رَوَى العَوفِيّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:-أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عمّار بْنِ يَاسِرٍ حِينَ عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺفَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مُكرها وَ جَاءَ مُعْتَذِرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ
وَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ:-
أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَعَذَّبُوهُ حَتَّى قَارَبَهُمْ فِي بَعْضِ مَا أَرَادُوا فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-"كَيفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟ "قَالَ: مُطْمَئِنًا بِالْإِيمَانِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ عَادُوا فَعُدْ"
وَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ بِأَبْسَطَ مِنْ ذَلِكَ وَ فِيهِ أَنَّهُ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺوَ ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ
وَ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تُركتُ حَتَّى سَببتك وَ ذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ!
قَالَ:-"كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟"قَالَ: مُطَمْئِنًا بِالْإِيمَانِ. فَقَالَ: "إِنْ عَادُوا فَعُدْ".

وَ فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ:{إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}

*وَ لِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُوَالى المكرَه عَلَى الْكُفْرِ إِبْقَاءً لِمُهْجَتِهِ وَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَسْتَقْتِلَ كَمَا كَانَ بِلَالٌ ﷺيَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهِ الْأَفَاعِيلَ حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَضَعُونَ الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَ يَأْمُرُونَهُ أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ وَ هُوَ يَقُولُ: أَحَد أَحَد.

وَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا ﷺوَ أَرْضَاهُ.

وَ كَذَلِكَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ:-

أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ:-أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟

فَيَقُولُ: لَا أَسْمَعُ. فَلَمْ يَزَلْ يُقَطِّعُهُ إِرْبًا إِرْبًا وَ هُوَ ثَابِتٌ عَلَى ذَلِكَ ( )

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)في غاية الشدة مع أنه دائم أبدا﴿١٠٦﴾

و (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ)حيث ارتدوا على أدبارهم:–

1–طمعا في شيء من حطام الدنيا و رغبة فيه 2–و زهدا في خير الآخرة

(وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ)

فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية فلم يهدهم لأن الكفر وصفهم﴿١٠٧﴾

(أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ)فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير

(وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ)و على سمعهم و على أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم و يصل إلى قلوبهم.

(وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ)فشملتهم الغفلة و أحاط بهم الخذلان و حرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء

و ذلك أنها أتتهم فردوها و عرضت عليهم فلم يقبلوها﴿١٠٨﴾

(لَا جَرَمَ)حقًّا

(أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ)الذين خسروا أنفسهم و أموالهم و أهليهم يوم القيامة و فاتهم النعيم المقيم و حصلوا على العذاب الأليم.

و هذا بخلاف من أكره على الكفر و أجبر عليه و قلبه مطمئن بالإيمان؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه و لا إثم و يجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

و دل ذلك على أن:–

كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنه لا عبرة به و لا يترتب عليه حكم شرعي لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى و أحرى﴿١٠٩﴾

(ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟)

انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (1/ 327) وأسد الغابة لابن الأثير (1/ 443) .

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا)للمستضعفين فى «مكة»الذين عذَّبهم المشركون حتى وافقوهم على ما هم عليه ظاهرًا(مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا)ففتنوهم بالتلفظ بما يرضيهم و قلوبهم مطمئنة بالإيمان و لمَّا أمكنهم الخلاص هاجروا إلى «المدينة» ثم جاهدوا فى سبيل الله و صبروا على مشاق التكاليف (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا)من بعد توبتهم(لَغَفُورٌ)لهم(رَحِيمٌ)بهم.

*ثم إن ربك الذى ربى عباده المخلصين بلطفه و إحسانه لغفور رحيم لمن هاجر فى سبيله و خلى دياره و أمواله طلبا لمرضاة الله و فتن على دينه ليرجع إلى الكفر فثبت على الإيمان و تخلص ما معه من اليقين ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم فى دين الله بلسانه و يده و صبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التى تنال بها أعظم العطايا و أفضل المواهب و هى مغفرة الله للذنوب صغارها و كبارها المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه و رحمته العظيمة التى بها صلحت أحوالهم و استقامت أمور دينهم و دنياهم فلهم الرحمة من الله فى يوم القيامة

*الصحيح المسند من أسباب النزول:ابن جرير عن ابن عباس قال: -

كان قوم من أهل مكة أسلموا و كانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم و قتل بعض فقال المسلمون:كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}إلى آخر الآية.

قال:و كتب إلى من بقى بمكة من المسلمين هذه الآية لا عذر لهم قال:-

فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت هذه الآية{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}إلى آخر الآية. فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا و أيسوا من كل خير

ثم نزلت فيهم{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}

فكتبوا إليهم بذلك إن الله قد جعل لكم مخرجا فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم ثم نجا من نجا و قتل من قتل(١١٠)

حين:--

۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ)تُحاجُّ

(عَن نَّفْسِهَا)لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاجُّ عَنْهَا لَا أَبٌ وَ لَا ابْنٌ وَ لَا أَخٌ وَ لَا زَوْجَةٌ

*كلٌّ يقول نفسى نفسى لا يهمه سوى نفسه ففى ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

(وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ)من خير و شر

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

فلا يزاد فى سيئاتهم و لا ينقص من حسناتهم{فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[يس: 54] 111

مثل لمن يكفر بالنعمة 112-113

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ)و هذه القرية هى مكة المشرفة

التى كانت(آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً)لا يهاج فيها أحد و تحترمها الجاهلية الجهلاء

حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه و أخيه فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم و النعرة العربية فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها كَمَا قَالَ:-

{وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا}[القصص: 57]

(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا)هنيئا سَهْلًا

(مِّن كُلِّ مَكَانٍ)و كذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع و لا شجر و لكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته و صدقه يدعوهم إلى أكمل الأمور و ينهاهم عن الأمور السيئة

(فَكَفَرَتْ)جَحَدَتْ(بِأَنْعُمِ)آلَاءَ(ٱللَّهِ)عَلَيْهَا وَ أَعْظَمُ ذَلِكَ بِعْثَةُ مُحَمَّدٍ ﷺإِلَيْهِمْ

كَمَا قَالَ{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ28 جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ}[إِبْرَاهِيمَ]

(فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ)فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه و ألبسهم

(لِبَاسَ ٱلْجُوعِ)الذى هو ضد الرغد

*أَلْبَسَهَا وَ أَذَاقَهَا الْجُوعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُجبى إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ذَلِكَ لَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺوَ أَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ فَأَكَلُوا العِلْهِز -وَ هُوَ:-وَبَرُ الْبَعِيرِ يُجَّعَلُ بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ.

(وَٱلْخَوْفِ)الذى هو ضد الأمن

*وَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ بُدِّلوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺو أصحابه حِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَطْوَةِ سَرَايَاهُ و جُيوشه وَ جَعَلُوا كُلَّ مَا لَهُمْ فِي سَفَال وَ دَمَارٍ حَتَّى فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ

(بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ)و ذلك بسبب صنيعهم و كفرهم و عدم شكرهم وَ بَغْيِهِمْ وَ تَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ فِيهِمْ مِنْهُمْ وَ امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ:

{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}[آلِ عِمْرَانَ: 164]

وَ قَالَ تَعَالَى:{فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا10رَسُولا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}[الطَّلَاقِ]الْآيَةَ

وَ قَوْلِهِ:{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}إِلَى قَوْلِهِ:{وَلا تَكْفُرُونِ}[الْبَقَرَةِ: 151 152]

*وَ كَمَّا أَنَّهُ انْعَكَسَ عَلَى الْكَافِرِينَ حَالُهُمْ فَخَافُوا بَعْدَ الْأَمْنِ وَ جَاعُوا بَعْدَ الرَّغَدِ بَدَّل اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا وَ رَزَقَهُمْ بَعْدَ العَيْلَة وَ جَعَلَهُمْ أُمَرَاءَ النَّاسِ وَ حُكَّامَهُمْ وَ سَادَتَهُمْ وَ قَادَتَهُمْ وَ أَئِمَّتَهُمْ.

(وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ112

(وَلَقَدْ جَآءَهُمْ)و لقد أرسل الله إلى أهل «مكة»

(رَسُولٌ مِّنْهُمْ)هو النبى محمد ﷺ يعرفون نسبه و صدقه و أمانته

(فَكَذَّبُوهُ)فلم يقبلوا ما جاءهم به و لم يصدقوه

(فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ)من الشدائد و الجوع و الخوف و قَتْل عظمائهم في «بدر»

(وَهُمْ ظَٰلِمُونَ)لأنفسهم بالشرك بالله و الصدِّ عن سبيله113

(فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ)يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من:-الحيوانات و الحبوب و الثمار و غيرها.

(حَلَٰلٗا طَيِّبٗا)حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله أو أثرا عن غصب و نحوه.

فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف و لا تَعَدٍّ.

(وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ)بالاعتراف بها بالقلب و الثناء على الله بها و صرفها في طاعة الله.

(إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ)إن كنتم مخلصين له العبادة فلا تشكروا إلا إياه و لا تنسوا المنعم114

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ)الأشياء المضرة تنزيها لكم

التحليل و التحريم بيد الله 114-119

و ذلك:-كـ(ٱلۡمَيۡتَةَ)و يدخل فى ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة

ويستثنى من ذلك ميتة الجراد و السمك.

(وَٱلدَّمَ)المسفوح و أما ما يبقى فى العروق و اللحم فلا يضر.

(وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ)لقذارته و خبثه و ذلك شامل للحمه و شحمه و جميع أجزائه.

(وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ)كالذى يذبح للأصنام و القبور و نحوها لأنه مقصود به الشرك.

(فَمَنِ ٱضۡطُرَّ)إلى شيء من المحرمات-بأن حملته الضرورة و خاف إن لم يأكل أن يهلك-فلا جناح عليه إذا لم يكن باغيا أو عاديا

(غَيۡرَ بَاغٖ)أى: إذا لم يرد أكل المحرم و هو غير مضطر

(وَلَا عَادٖ)و لا متعد الحلال إلى الحرام أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة فهذا الذى حرمه الله من المباحات

(فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ)له(رَّحِيمٞ)به لا يعاقبه على ما فعل ﴿١١٥﴾

(وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ)أى:لا تحرموا و تحللوا من تلقاء أنفسكم

(لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ)كذبا و افتراء على الله و تقولا عليه

*وَ يَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ مَنِ:-

1-ابْتَدَعَ بِدْعَةً لَيْسَ لَهُ فِيهَا مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ

2-أَوْ حَلَّلَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ

3-أَوْ حَرَّمَ شَيْئًا مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ بِمُجَرَّدِ رَأْيِهِ و تشهِّيه.

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ)

لا فى الدنيا و لا فى الآخرة و لا بد أن يظهر الله خزيهم و إن تمتعوا فى الدنيا ﴿١١٦﴾

(مَتَٰعٞ قَلِيلٞ)فِي الدُّنْيَا وَ أَمَّا فِي الْآخِرَةِ(وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ)كَمَا قَالَ:{نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}[لقمان: 24]

فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلا منه و صيانة عن كل مستقذر ﴿١١٧﴾

(وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا)

و أما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب:–ظلمهم عقوبة لهم

(مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ)كما قصه فى سورة الأنعام فى قوله:–{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}[الأنعام: 146]

(وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ)بتحريم ذلك عليهم

(وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ)لأنفسهم بالكفر و البغى فاستحقوا التحريم عقوبة لهم ﴿١١٨﴾

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ)و هذا حض منه لعباده على التوبة و دعوة لهم إلى الإنابة فأخبر أن من عمل سوءا بجهالة بعاقبة ما تجنى عليه و لو كان متعمدا للذنب فإنه لا بد أن ينقص ما فى قلبه من العلم وقت مفارقة الذنب.

*قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ.

ثم إن ربك للذين فعلوا المعاصى فى حال جهلهم لعاقبتها و إيجابها لسخط الله-فكل عاص لله مخطئًا أو متعمدًا فهو جاهل بهذا الاعتبار و إن كان عالمًا بالتحريم-

(ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا)فإذا تاب و أصلح بأن ترك الذنب و ندم عليه و أصلح أعماله

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

فإن الله يغفر له و يرحمه و يتقبل توبته و يعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها﴿١١٩﴾

يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه السلام و خصه به من الفضائل العالية و المناقب الكاملة فقال:-

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)إماما جامعا لخصال الخير هاديا مهتديا.الامة:الْإِمَامُ الَّذِى يُقْتَدَى بِهِ.

(قَانِتًا لِلَّهِ)أى: مديما لطاعة ربه مخلصا له الدين هُوَ الْخَاشِعُ الْمُطِيعُ.

صفات ابراهيم 102-123

(حَنِيفًا)مقبلا على الله بالمحبة و الإنابة و العبودية معرضا عمن سواه.الْمُنْحَرِفُ قَصْدًا عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ

(وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)فى قوله و عمله و جميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

*قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي الْعُبَيْدَيْنِ:-أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْأُمَّةِ الْقَانِتِ

فَقَالَ: الْأُمَّةُ:-مُعَلِّمُ الْخَيْرِ وَ الْقَانِتُ:-الْمُطِيعُ لِلَّهِ وَ رسُولِهِ ﴿١٢٠﴾

(شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ)آتاه الله في الدنيا حسنة و أنعم عليه بنعم ظاهرة و باطنة فقام بشكرها

*كَمَا قَالَ: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ} [النَّجْم: 37] أَيْ: قَامَ بِجَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

*فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة :—

أن (اجْتَبَاهُ)ربه و اختصه بخُلته و جعله من صفوة خلقه و خيار عباده المقربين

كَمَا قَالَ:{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [الْأَنْبِيَاء: 51]

(وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

في علمه و عمله فعلم بالحق و آثره على غيره.وَ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ عَلَى شَرْعٍ مَرْضِيٍّ ﴿١٢١﴾

(وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)لسان صدق رزقا واسعا و زوجة حسناء و ذرية صالحين و أخلاقا مرضى

*جَمَعْنَا لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ فِي إِكْمَالِ حَيَاتِهِ الطَّيِّبَةِ

(وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)الذين لهم المنازل العالية و القرب العظيم من الله تعالى ﴿١٢٢﴾

و من أعظم فضائله(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)أوحى الله لسيد الخلق و أكملهم

(أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ)و يقتدى به هو و أمته(حَنِيفًا)مائلا عن الشرك

(وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

*كَمَا قَالَ{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الْأَنْعَام: 161] ﴿١٢٣﴾

*ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْيَهُودِ:-

توجيهات للنبى و الدعاة 124-128

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ)أى: فرضا

(عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ)حين ضلوا عن يوم الجمعة و هم اليهود فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم فى السبت احترامه و تعظيمه و إلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذى هدى الله هذه الأمة إليه.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

فيبين لهم المحق من المبطل و المستحق للثواب ممن استحق العقاب .

*البخارى876-عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:-

«نَحْنُ الآخِرُونَ(زمانا)السَّابِقُونَ(منزلة و فضلا)يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْدَ(غير)أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا
ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ(الذى فرض عليهم تعظيمه والاجتماع فيه)الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ
فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ(يأتون من ورائنا كالخدم)اليَهُودُ غَدًا وَ النَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»

*مسلم(855)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«نَحْنُ الْآخِرُونَ وَ نَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ أُوتِيَتِ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَ أُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ
ثُمَّ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْنَا هَدَانَا اللهُ لَهُ

فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ الْيَهُودُ غَدًا وَ النَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»(١٢٤)

(ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ)

ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم و كافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع و العمل الصالح

(بِٱلۡحِكۡمَةِ)أى:-كل أحد على حسب حاله و فهمه و قوله و انقياده.

و من الحكمة –

1–الدعوة بالعلم لا بالجهل

2–و البداءة بالأهم فالأهم و بالأقرب إلى الأذهان و الفهم

3–و بما يكون قبوله أتم

4–و بالرفق و اللين

5–فإن انقاد بالحكمة و إلا فينتقل معه بالدعوة

(وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ)و هو الأمر و النهى المقرون بالترغيب و الترهيب إما:–

1–بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح و تعدادها و النواهى من المضار و تعدادها

2–و إما بذكر إكرام من قام بدين الله و إهانة من لم يقم به.

3–و إما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل و الآجل و ما أعد للعاصين من العقاب العاجل و الآجل

فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق.أو كان داعيه إلى الباطل ⇦فيجادل بالتى هى أحسن:–

1–و هى الطرق التى تكون أدعى لاستجابته عقلا و نقلا.

و من ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التى كان يعتقدها فإنه أقرب إلى حصول المقصود

2–و أن لا تؤدى المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها و لا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة و نحوها.

(وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ)

مَنِ احْتَاجَ مِنْهُمْ إِلَى مُنَاظَرَةٍ وَ جِدَالٍ فَلْيَكُنْ بِالْوَجْهِ الْحَسَنِ بِرِفْقٍ وَ لِينٍ وَ حُسْنِ خِطَابٍ كَمَا قَالَ:

{وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [الْعَنْكَبُوتِ: 46]

فَأَمَرَهُ تَعَالَى بِلِينِ الْجَانِبِ كَمَا أَمَرَ مُوسَى وَ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَالَ:-

{فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}[طه: 44].

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ)

علم السبب الذى أداه إلى الضلال و علم أعماله المترتبة على ضلالته و سيجازيه عليها.

(وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ)علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

*قدم عَلِمَ الشَّقِيَّ مِنْهُمْ وَ السَّعِيدَ وَ كَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَ فَرَغَ مِنْهُ فَادْعُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَ لَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَى مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ حَسَرَاتٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}[الْقَصَص: 56] وَ{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} [الْبَقَرَة: 272] ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى–مبيحا للعدل و نادبا للفضل و الإحسان:–

(وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ)من أساء إليكم بالقول و الفعل

(فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ)من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:الترمذى 3129 - عَنْ أَبِي العَالِيَةِ قَالَ:حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ قَالَ:-
لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَ سِتُّونَ رَجُلًا وَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ مِنْهُمْ حَمْزَةُ فَمَثَّلُوا بِهِمْ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ:-لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ قَالَ:
فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}[النحل: 126]
فَقَالَ رَجُلٌ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ اليَوْمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُفُّوا عَنِ القَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً».
*أحمد 21229عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ:-لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ قُتِلَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَ سِتُّونَ رَجُلًا وَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:
لَئِنْ كَانَ لَنَا يَوْمٌ مِثْلُ هَذَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ قَالَ رَجُلٌ لَا يُعْرَفُ:
لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺأَمِنَ الْأَسْوَدُ وَ الْأَبْيَضُ إِلَّا فُلَانًا وَ فُلَانًا نَاسًا سَمَّاهُمْ
فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى:{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}[النحل: 126]
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَصْبِرُ وَ لَا نُعَاقِبُ»
وَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ لَهَا أَمْثَالٌ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْعَدْلِ وَ النَّدْبِ إِلَى الْفَضْلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ:{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} ثُمَّ قَالَ {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[الشُّورَى: 40]
وَ قَالَ{وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}ثُمَّ قَالَ {فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ}[الْمَائِدَة: 45]

(وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ)عن المعاقبة و عفوتم عن جرمهم

(لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ)من الاستيفاء و ما عند الله خير لكم و أحسن عاقبة كما قال تعالى:–

{فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[الشُّورَى: 40] ﴿١٢٦﴾

ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله و الاستعانة بالله على ذلك و عدم الاتكال على النفس فقال:–

(وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ)هو الذى يعينك عليه و يثبتك.

(وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ)إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك فإن الحزن لا يجدي عليك شيئا.

(وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ)شدة و حرج

(مِّمَّا يَمۡكُرُونَ)فإن مكرهم عائد إليهم

*مِمَّا يُجْهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي عَدَاوَتِكَ وَ إِيصَالِ الشَّرِّ إِلَيْكَ فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَ نَاصِرُكَ وَ مُؤَيِّدُكَ وَ مُظْهِرُكَ

وَ مُظْفِرُكَ بِهِمْ ﴿١٢٧﴾

(إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ)فالله مَعَهُمْ بِتَأْيِيدِهِ وَ نَصْرِهِ وَ مَعُونَتِهِ وَ هَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ كَقَوْلِهِ:-

{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأَنْفَال: 12]

وَ قَوْلِهِ لِمُوسَى وَ لهَارُونَ: {لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46]

وَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلصِّدِّيقِ وَ هُمَا فِي الْغَارِ: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التَّوْبَة: 40]

*وَ أَمَّا الْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ فَبِالسَّمْعِ وَ الْبَصَرِ وَ الْعِلْمِ كَقَوْلِهِ{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الْحَدِيد: 4]

وَ كَقَوْلِهِ{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [الْمُجَادَلَة: 7]

وَ كَمَا قَالَ{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يُونُس: 61]

(ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ)تَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ و النبى ﷺ من المتقين

(وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ)فَعَلُوا الطَّاعَاتِ فَهَؤُلَاءِ اللَّهُ يَحْفَظُهُمْ وَ يَكْلَؤُهُمْ وَ يَنْصُرُهُمْ وَ يُؤَيِّدُهُمْ وَ يُظْفِرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَ مُخَالِفِيهِمْ.

*و الله مع المتقين المحسنين بعونه و توفيقه و تسديده و هم الذين:-

1-اتقوا الكفر و المعاصى و أحسنوا فى عبادة الله بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم

2-و الإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين ﴿١٢٨﴾